ملخص البحث

الصورة في سورة العاديات: إذا تأملنا هذه السورة وجدناها تتكون من صور متعددة، ويمكن حصرها في ثلاث صور، هي صورة الخيل، وصورة الإنسان، وصورة البعث والنشور.

و كل صورة منها تحمل مجموعة من الآيات يأخذ بعضها في برقاب بعض في امتداد وصعود. والسورة الكريمة تتكون من ثلاثة مقاطع، تعرض جملة من المشاهد والصور، ولكل مشهد منها عدد من الآيات توضحه وتجليه، وكل مشهد له خصوصية تميزه من غيره، مما يجعل المتلقي يعيش مع المشهد بكل تفاصيله، ويمتاز كل بما فيه من ألفاظ تناسب طبيعة المشهد المعروض، وكل مشهد يختلف عن بقية المشاهد، ولكنه يلتقي مع بقيه المشاهد في نمو وامتداد وصعود، ولقاؤه معها في كونه لبنةً أساسيةً في بناء السورة في عرض المشاهد؛ لتكوين الصورة الكلية، والأسلوب التصويري له أثره في النفس، وقد اخترت هذه السورة لتكون مجالاً للتطبيق، واقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أقسام، وخاتمة.

والتمهيد: جانب تنظيري مختصر، والأقسام الثلاثة تتناول الجانب التطبيقي.

وفي السطور القادمة بيان للجانب التنظيري، وعرض للمشاهد والصور التي عرضتها السورة الكريمة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فقد جاء اختياري لموضوع: **(صورة الإنسان في سورة العاديات)**؛ لأن البحث في إعجاز القرآن من أشرف المباحث وأجلها، كيف لا وهو كتاب الله الذي أنزله على الناس جميعا؛ ليدبروا آياته: **(كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته)** فهذا القرآن لو أنزل على جبل لتصدع، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحشر: ٢١) والعرب الذين نزل عليهم القران أحسوا بتأثيره المباشر عليهم كيف لا وهم لا يستطيعون الفكاك من السير إلى سماعه رغم تعاهدهم فيما بينهم على عدم سماعه، لكنهم يحسون بتأثير القرآن ولم يجدوا لذلك تعليلا حتى قال الوليد بن المغيرة **(والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن اعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو، وما يعلى عليه)** ولما بهرهم ما فيه من بلاغة وبيان لجأوا إلى العناد والمكابرة وهو شأن كل عاجز ولذلك تحدى الله العرب، وهم أهل الفصاحة والبيان، أن يأتوا بقرآن مثله إن استطاعوا، ولكن أنى لهم ذلك، وظل القرآن يتدرج معهم لكنهم عجزوا عن معارضته؛ لذلك جاءت آيات التحـــدي: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾. (الإسراء: ٨٨).

والقـرآن الكـريم يـؤثر الأسـلوب المـؤثر فـي النفـوس، ولا شـك أن الأسلوب التصويري من أبلـغ الأسـاليب؛ لأنـه يـصل إلـى أعمـاق الـنفس

ويحدث فيها التأثير.

والتصوير قد يكون **بالصور** البيانية وقد يكون اللفظ ذاته فيه الدلالة التصويرية. وبتأمل سورة العاديات نجد القوة في تآلف ألفاظها، ودقة تراكيبها، وقوة تصويرها.

والأسلوب التصويري له أثره في النفوس، بما يبثه من إيقاع متميز، والإيقاع في السورة متنوع حسب الموقف، وقد اختارت هذه السورة لتكون مجالاً للتطبيق في هذا الجانب، والسورة مليئة **بالصورة** المثيرة المنبهة، فاللفظ بذاته، بجانب الدلالة اللغوية، له دلالة أخرى تتمثل فيما يوحي به من صور، وما يبثه من إيقاع يؤثر في النفوس عند قراءته وسماعه، فالألفاظ إذن لها الدلالة اللغوية، ولها ظلال وإيحاء مستقل عن معناها اللغوي من خلال تركيبها وسياقها؛ لذلك عنونت هذا البحث بـ«**صورة الإنسان في سورة العاديات**».

والدارسة التطبيقية تكشف أسرار التعبير في القرآن الكريم، ولا أعلم دراسة تناولت السورة بمثل هذا، ولقلة الدراسات التي تنحو هذا المنحى، اخترت هذه السورة لتكون مجالاً للتطبيق.

واقتضت خطة البحث أن يكون في مقدمه، وتمهيد، ودراسة لمحتوى السورة بما فيها من قسم، ومقسم عليه، ونتيجة مترتبة على حالة المقسم عليه وكيف تشابكت هذه الأجزاء الثلاثة لتخدم الغرض الأصلي للسورة وهو التحذير من الجحود الذي يفضي بصاحبه إلى الهلاك، ثم الخاتمة.

وتناولت في التمهيد سبب نزول السورة، ومناسبتها لما قبلها، ومقاصد السورة، والسورة بين المكية والمدنية، ومفهوم الصورة بين القديم والحديث.

أما التقسيمات التي بنيت عليها الدراسة فتناولت: الدلالة البلاغية

لأسلوب القسم وهو حديث عن صورة الخيل، ثم المقسم عليه، وهو حديث عن: صورة الإنسان، ثم النتيجة المترتبة على جحود الإنسان وهي حديث عن: **البعث والحساب.**

وفي هذه الدراسة أبرزت السمات البلاغية في كل جزء منها، دون تخصيص؛ حتى لا أقطعها عن سياقها، والغرض الذي سيقت من أجله مجليا المشهد التصويري في كل موضع.

أما **الخاتمة** فقد أوجزت أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، وأتبعتها **بثبت المصادر والمراجع.**

وبعد: فهذه محاولة لتجلية الأسلوب التصويري فإن وفقت فهذه بغيتي، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت، وبذلت للوصول إلى ما سعيت لتحقيقه والله أسأل أن يوفقنا لتدبر كتابه، والغوص في أسراره، والعمل بما فيه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

حول السورة والصورة

أولا: الحديث عن السورة:

مناسبة السورة لما قبلها: علم المناسبات علم جليل القدر، وقد نبه إليه عدد من العلماء وهو علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن(١)، وتأتي سورة العاديات بعد سورة الزلزلة وبينهما تناسب ظاهر. فهي تبين أن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك؛ لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال، ولما ختم سورة الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل، افتتح هذه ببيان ما يجر إلى تلك الأعمال من الطبع، وما ينجر عليه ذلك الطبع مما يتخيله من النفع، موبخاً من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال، معنفاً من آثر دنياه على أخراه، وكأنه لا يجازى ولا يحاسب، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النعم الكبار الموجبة للشكر، فمن غلب عليه الروح شكر، ومن غلب عليه الطبع – وهم الأكثر – كفر(٢). ويقول الألوسي مبينا علاقة السورة بما قبلها (ولما ذكر سبحانه فيما قبلها الجزاء على الخير والشر وأتبع ذلك فيها بتعنيت من آثر دنياه على آخرته ولم يستعد لها بفعل الخير. ولا يخفي ما في قوله تعالى هناك {**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**} [الزلزلة: ٢]، وقوله سبحانه هنا إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ [العاديات: ٩] من المناسبة)(٣).

---

(١) نظم الدرر ١١/١.

(٢) ينظر نظم الدرر ٥٠٨/٨، والبرهان في تناسب سور القرآن ٣٧٤.

(٣) روح المعاني ٤٤١/١٥.

ولذلك يرى صاحب التفسير المنير أن:

المناسبة بين السورتين تظهر من وجهين:

١- هناك تناسب وعلاقة واضحة بين قوله تعالى في الزلزلة: {**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**} [٢] وقوله في هذه السورة: {**إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ**}.

٢- لما ختمت السورة السابقة ببيان الجزاء على الخير والشر، وبّخ اللَّه تعالى الإنسان على جحوده نعم ربه، وإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة، وترك استعداده للحساب في الآخرة بفعل الخير والعمل الصالح، وترك الشر والعصيان(١).

مقاصد السورة: ذم خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وتحذير المسلمين منها كغريزة الإنسان في حبه الشديد للثروة والمال، وبخله وجحود النعم، وإهمال الاستعداد للآخرة، وفيها الحض على فعل الخير والعمل الصالح الذي ينفع الإنسان حين رجوع الخلائق إلى اللَّه، والتهديد بالعقاب الشديد يوم القيامة، ووعظ الناس بأن وراءهم حسابا على أعمالهم بعد الموت، ليتذكره المؤمن ويهدد به الجاحد(٢).

سورة العاديات بين المكية والمدنية: اختلف في سورة العاديات فقيل هي مكية وقيل مدنية.

وهي مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة، وهي إحدى عشرة آية(٣)،

---

(١) انظر التفسير المنير ٣٠/٣٦٦.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٤٩٨ والتفسير المنير٣٠/٣٦٧.

(٣) القرطبي ٢٠/١٥٣.

والراجح أنها مكية كما يرى الرازي وابن كثير والسيوطي وجمع من المفسرين. لأن (السور المكية أكثر إيجازا؛ لأن المخاطبين بها هم أبلغ العرب وأفصحهم، ومدار البلاغة عندهم الإيجاز، ومعظمها تنبيهات وزواجر وبيان لأصول الدين بالإجمال، وهي قوارع تصخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف، وتدعو العقول إلى إطالة الفكر في الخطبين الغائب والعتيد، والخطرين القريب والبعيد، وهما عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة)[1]، وموضوعات السورة وخصائصها البلاغية ترجح أنها مكية.

سبب نزول السورة:

ذكر الواحدي في أسباب نزولها بعض الآثار ومنها (قال مقاتل: بعث رسول الله (ﷺ) سرية إلى حي من كنانة واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعا، فأخبر الله تعالى عنها، فأنزل – والعاديات ضبحا – يعنى تلك الخيل.

وعن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) بعث خيلا فأسهبت شهرا لم يأته منها خبر، فنزلت – والعاديات ضبحا – ضبحت بمناخرها إلى آخر السورة، ومعنى أسهبت: أمعنت في السهوب: وهي الأرض الواسعة جمع سهب)[2].

(١) تفسير المنار ٢٧/١.

(٢) أسباب النزول ٣٠٥/١.

ثانيا: مفهوم الصورة في القديم والحديث

عندما نطالع معاجم اللغة باحثين عن معنى (**الصورة**) نجد المعاني الآتية: فقد جاء في لسان العرب لابن منظور، في مادة (ص. و. ر).

أن الله (ﷻ) (المصور الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، ويرى ابن سيده أن: **الصورة** في الشكل، وتصورت الشيء: توهمت صورته فتصور لي. ويقول ابن الأثير: **الصورة** ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته)[1].

وفي المعجم الوسيط (**الصورة**) الشكل والتمثال المجسم وفي التنزيل العزيز: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧] (الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك) الانفطار وصورة المسألة أو الأمر صفتها والنوع يقال هذا الأمر على ثلاث صور وصورة الشيء ماهيته المجردة، وخياله في الذهن، أو العقل[2].

ويقول الراغب الأصفهاني **الصورة**: (ما ينتقش به الأعيان، ويتميز بها غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كصورة الإنسان والفرس، والحمار بالمعاينة، والثاني: معقول يدركه الخاصة دون العامة، **كالصورة** التي

---

(١) لسان العرب مادة صور.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٥٢٨/١.

اختص الإنسان بها من العقل، والروية، والمعاني التي خص بها شيء بشيء)[1].

وعلى هذا **فالصورة** هي الشكل والهيئة والذات المتميزة بالصفات.

وبهذا يتبين أن مدلول **الصورة** عند اللغويين يكمن في الشكل دون المضمون، وقد جاءت آراء البلاغيين متأثرة بآراء اللغويين ؛حيث أشار أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى **الصورة** من خلال نظرته للشعر فهو يرى أن المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ يقول (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الأعجمي، والعربي، والبدوي، والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير)[2].

ويرى قدامة بن جعفر أن المعاني بمنزلة المادة، والشعر فيها بمنزلة **الصورة** يقول في ذلك.

(المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها، فيما أحب وآثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها **كالصورة**، كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير **الصور** منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة)[3].

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القران ٣٢٣.

(٢) الحيوان ٣/١٣١-١٣٢.

(٣) نقد الشعر ٢.

وأبو هلال العسكري يرى أن الألفاظ أجساد و المعاني أرواح «(الألفاظ أجساد والمعاني أرواح وإنما نراها بعيون القلوب فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً، أفسدت **الصورة** وغيرت المعنى)[1].

لكن عبدالقاهر الجرجاني رسم لنا مفهوما للصورة يتجاوز الشكل وفيه نوع من التحديد يقول عبد القاهر الجرجاني: (ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار. فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل، ورداءته، أن ينظر إلى الفضة الحاملة تلك **الصورة** أو الذهب الذي وقع فيه العمل)[2] ويقول في موضع آخر.

(واعلم أن قولنا: **الصورة**، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا. فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة **الصورة**، فكان بين إنسان من إنسان، وفرس من فرس، بخصوصية تكون في صورة هذا، لا تكون في صورة ذاك. وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكان تبين خاتم من خاتم، وسوار من سوار بذلك. ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا، وفرقاً عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك. وليس العبارة عن ذلك **بالصورة** شيئاً نحن ابتدأناه، فينكره منكر، بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء. ويكفيك قول الجاحظ: وإنما

---

(١) الصناعتين ٥١.

(٢) دلائل الإعجاز ٧٥.

الشعر صناعة وضرب من التصوير)[١].

ومع ذلك ظل مفهوم **الصورة** عند هؤلاء مفهوما جزئيا (يدور في الإطار الحسي، بعيدا عن النظرة الكلية والشمولية للعمل الأدبي...، فاهتمت **بالصورة** المفردة أو الجزئية دون أن تهتم **بالصورة** الكلية للسياق)[٢].

وقد وردت كلمة «**الصورة**» في القرآن الكريم ست مرات. بصيغ مختلفة[٣]، ويرى بعض المفسرين أن «**الصورة**» هي الشكل ولذلك يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم**} (أي أحسن أشكالكم)[٤].

وفي العصر الحديث اهتم النقاد بدراسة **الصور** ة وبيان وظائفها، إلا أنهم لم يتفقوا على تعريف واضح للصورة؛ لأن الفنون بطبيعتها تكره القيود، وبقي المصطلح غامضا، ينظر إليه كل ناقد، من خلال رؤيته، ومذهبه (لكونها تسمح باستعمالها بمعنى عام وذلك بالنظر إلى هذا الاستعمال من منظور أسلوبي خاص، وواسع جدا و مبهم جدا وغير دقيق لأن استعمالها ولو في مجال البلاغة المحصور غائم وغير محدد بدقة)[٥].

والمقام لا يتسع لبيان اختلاف النقاد المعاصرين في مفهوم **الصورة**، ولعلنا نأخذ تعريفا لأحد النقاد في العصر الحديث فيه نوع من الشمول في

---

(١) دلائل الإعجاز ١٤٧.

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن ٣١.

(٣) انظر الصورة الفنية في القرآن ٣١.

(٤) تفسير ابن كثير ١٣٥/٨.

(٥) البلاغة مدخل لدراسة الصور البيانية، ص١٥.

تعريف **الصورة** الفنية.

فالصورة في نظره « الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه[١]» ثم يذكر أن لها معنيين:

الأول: ما يقابل المادة الأدبية، ويظهر في الخيال والعبارة.

الثاني: ما يقابل الأسلوب، ويتحقق بالوحدة، وهي تقوم على الكمال والتأليف والتناسب[٢].

فهو يرى أن **الصورة:** هي المادة التي تتركب من اللغة بدلالتها اللغوية والموسيقية، ومن الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل.[٣]

ويبين مقياس **الصورة** الجيدة لديه فيقول: (هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة، **والصورة** هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية، وهذا هو مقياسها الأصيل، وكل ما نصفها به من جمال إنما مرجعه هذا التناسب بينها وبين ما تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد، فيه روح الأديب وقلبه بحيث نقرؤه كأنما نحادثه، ونسمعه كأنما نعامله)[٤].

ولعل هذا التحديد للصورة في تعريفها ومعناها ورؤية هويتها ومقياسها (من أفضل التعاريف الفنية نظراً لما يحمله في تضاعيفه من

---

(١) أصول النقد الأدبي ٢٤٢.

(٢) انظر أصول النقد الأدبي ٢٥٩.

(٣) انظر أصول النقد الأدبي ٢٤٩.

(٤) المرجع السابق ٢٤٩-٢٥٠.

الوضوح والمرونة والدقة العلمية ولأنه جامع مانع كما يقول المناطقة)[1].

ومعنى هذا أنه لا يمكن حصر الصورة في الأنماط البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وإنما تكون **الصورة** هي القدرة على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة، وقد تكون بالحقيقة، وقد تكون بالمجاز (فلم تعد **الصورة** البلاغية وحدها المقصودة بالمصطلح، بل قد تخلو **الصورة**- بالمعنى الحديث – من المجاز، أصلا فتكون عبارات حقيقة الاستعمال ومع ذلك تشكل صورة دالة على خيال خصب).[2] وهذا يدل على أن الألفاظ الحقيقية لها دورها في التصوير، كما أن للصور البيانية دورها، ويحكم ذلك السياق، فقد يقتضي أن يعبر **بالصور** البلاغية، وقد يقتضي التعبير بالحقيقة.

لكن من جانب آخر فإن النقاد لم يهتموا بدراسة **الصورة** القرآنية، على الرغم من روعة بنائها الفني، وإيقاعها الفريد، وقوة تأثيرها في النفوس، بل صبوا الجهود على دراسة **الصورة** الشعرية فقط، فجاءت هذه الدراسات للصورة قاصرة، ولم تكتمل بسبب هذا الإهمال لظاهرة **الصورة** في القران الكريم، وكان من المؤمل، أن يهتموا أيضا بدراسة **الصورة** القرآنية؛ (لأنها تصلح نموذجا يحتذى في تناسق التعبير مع التصوير، وتناسق **الصورة** مع المعنى، أو الشكل مع المضمون، كما تصلح نموذجا أيضا لتنوع **الصور**، وتفاعلها مع السياق،)[3].

وقد استطاع سيد قطب في كتابه (التصوير الفني) أن يسبق النقاد

---

(١) نظرية النقد العربي ١٩.

(٢) الصورة في الشعر العربي ص ٢٥.

(٣) وظيفة الصورة الفنية ١٧.

المعاصرين إلى دراسة **الصورة** الفنية عموما، ودراسة **الصورة** القرآنية خصوصا.

فهو يرى أن أسلوب القرآن كلّه تصويري ما عدا آيات التشريع، وهذا الأسلوب التصويري هو سرّ إعجازه، (إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل. القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض – فيما عدا غرض التشريع)[١].

والقرآن الكريم يسخر التصوير في التعبير عن أغراضه، فجاءت صوره حية متحركة شاخصة، مجسدة كما جاءت متنوّعة، مشحونة بالمشاعر، والانفعالات.

و التصوير في القرآن الكريم، ليس تصويرا شكليا بل هو (تصوير شامل ومذهب مقرر فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من **الصور**، تتملاها العين والأذن والحس والخيال)[٢].

والصور في القرآن على نوعين، صور محسوسة، وصور متخيلة، يقول معبرا عن ذلك: «يعبّر **بالصورة** المحسّة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية والحادث المحسوس والمشهد المنظور)[٣].

و إهمال دراسة السياق أو العلاقات القائمة بين **الصور** يضعف من

---

(١) التصوير الفني ٩.

(٢) التصوير الفني ٣٧.

(٣) التصوير الفني ٣٦.

قيمة **الصورة** ولذلك لابد من ربط **الصورة** الجزئية بالنسق، فينظر إليها من خلال البناء التصويري العام، فتبدو فيه **الصورة** الجزئية لبنة من لبناته، تؤدي وظيفتها ضمن البناء العام، أو **الصورة** الكلية لأن **الصورة** الفنية في القرآن الكريم متميّزة بطبيعتها ووظيفتها فهي (تشكّل وحدة متماسكة لا تنفصل فيها بعض أجزائها عن بعض، بل هي نسيج واحد، تتلاحم فيه المقوّمات أو الأجزاء، ليؤدي كل جزء منها دوره في تشكيل **الصورة** ضمن النسق المعجز)[١].

وأخيرا لا يعني أن دراسته تلك اتسمت بالشمول، ولكنه لفت الانتباه لذلك، وسبق غيره، وفتح الباب لمن يأتي بعده.

وسيكون مجال تطبيق الأسلوب التصويري من خلال سورة العاديات.

وقبل الدخول في سورة العاديات وما فيها من صور ومشاهد، ونظرا لما للجرس والإيحاء من أثر في التصوير؛ كان لابد من بيانهما قبل التطبيق على السورة.

مفهوم الجرس

الجرس: الصوت أو خفيه وإذا قالوا: ما سمعت له حساً ولا جرساً كسرواً. واللحس باللسان يجرس ويجرس وبالتحريك: الذي يعلق في عنق البعير والذي يضرب به أيضاً[٢].

(الجرس) الصوت نفسه أو الخفي منه، وجرس الحرف نغمته، وتقول سمعت جرس الطير سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله[٣].

---

(١) وظيفة الصورة الفنية ٤٣.

(٢) القاموس المحيط ٦٨٩/١.

(٣) المعجم الوسيط ١١٧/١.

وجرس الحروف صوتها المنغم، وهي تختلف في صفاتها على حسب مخارجها[١]، والمقصود بجرس الكلمات (نغمتها، وصوتها، وإيقاعها الذي يحصل نتيجة التلاؤم بين حروفها، وائتلاف هذه الحروف، وتوافق أصواتها وحلاوة جرسها) [٢].

وبهذا يتبين لنا أن الجرس يطلق على الصوت مطلقا ولكنه الصوت المنغم يقال (جرست وتجرست أي تكلمت بشيء وتنغمت به)[٣].

مفهوم الإيحاء:

(وحي) الواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان [٤].

والوحي: الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة وإلالهام والكلام الخفي[٥].

(والإيحاء في القرآن صفة ملازمة لألفاظه، تقوم بتدقيق معالم **الصور** التي تعرضها الآية، وتدع المخيلة سابحة في أبعاد المعاني)[٦].

اسم السورة وسبب تسميتها: قبل الدخول في **الصور** التي تضمنتها هذه السورة لابد أن نتعرف على المقصود بالعاديات؛ لأن تجليته يزيل

---

(١) انظر نظرية التصوير الفني ١٠٥.
(٢) انظر نظرية التصوير الفني ١٠٥
(٣) لسان العرب ٣٥/٦.
(٤) معجم مقاييس اللغة ٩٣/٦.
(٥) القاموس المحيط ١٧٢٩/١.
(٦) التصوير الفني في القران ٩٨-٩٩.

الإشكال، و يجعل **الصورة** واضحة جليه؛ نظرا لأن هناك خلافا بين المفسرين في المقصود بالعاديات.

وسميت سورة العاديات بهذا الاسم؛ لأن اللَّه افتتحها بالقسم بالعاديات.

والعاديات: الجاريات بسرعة ولذلك اختلف الصحابة ومن بعدهم في الموصوف فقيل هي الإبل وقيل هي خيل المجاهدين المسرعة في لقاء العدو(١). وفي هذا قولان لعلماء التفسير فمنهم من قال إنها الإبل ومنهم من قال إنها الخيل ولكل منهم دليله فمن قال إنها الإبل وليست الإبل بعامة، بل هي إبل الحاج تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ثم إلى منى، وتثير الغبار عند وادي محسر، وذلك في مناسك الحج، واستدلوا لهذا بأن هذه السورة مكية، وأنه ليس في مكة جهاد على الخيل حتى يقسم بها، ويستدلون على هذا بما أخرج ابن جرير، وَابن أبي حاتم، وَابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه، وَابن مردويه عن ابن عباس: (قال: بينما أنا في الحجر جالس إذا أتاني رجل فسأل عن العاديات ضبحا فقلت: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحا، فقال: سألت عنها أحدا قبل قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: هي الخيل حين تغير في سبيل الله، فقال: اذهب فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك، والله إن أول غزوة في الإسلام لبدر، وما كان معنا إلا فرسان، للزبير وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف يكون العاديات ضبحا، إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة فإذا أووا إلى المزدلفة أوروا إلى

(١) انظر البحر المحيط ٥٢٦/١ والتفسير المنير ٣٦٦/٣٠.

النيران ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ من المزدلفة إلى منى فذلك جمع وأما قوله: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ فهو نقع الأرض حين تطؤه بخفافها وحوافرها.

قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي، (ﷺ))[1]

والقول الثاني لجمهور المفسرين وهو الصحيح، فإن الموصوف هو الخيل، والتقدير (والخيل العاديات) والخيل العاديات معلومة للعرب حتى قبل مشروعية الجهاد، فهناك خيل تعدو على أعدائها سواء بحق أو بغير حق فيما قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فالخيل تعدو على أعدائها بحق.[2]. والجمهور من أهل التفسير واللغة على أن العاديات هنا الخيل، تعدو في سبيل اللّه[3].

لذلك قال الرازي: (واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل؛ وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر مالا يظهر بخف الإبل)[4].

ويرى ابن القيم أن هذا هو الرأي الراجح لعدة وجوه: أن المستعمل بالضبح إنما هو الخيل، وأن وصفها بأنها توري النار مشهور بالخيل، وأن وقت الإغارة يكون بالصبح، والحجاج عند الصبح لا يغيرون، وإنما

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٥/٨- ٤٦٦ وانظر الدر المنثور ٥٩٥/١٥.

(٢) انظر تفسير القران الكريم ٢٩٥ جزء عم.

(٣) انظر البحر المحيط ٥٢٧/١٠.

(٤) التفسير الكبير ٦١/٣٢.

يكونون بموقف مزدلفة، وأن عطف توسط الجمع بالفاء التي هي للترتيب بعد الإغارة يقتضي أنها أغارت وقت الصبح، ولا يمكن الجمع بينهما وبين وقت الصبح وتوسط الجمع، وأن النقع هو الغبار وجمع مزدلفة وما حولها كله صفاء لا غبار به تثيره الإبل.(١)

ومعنى هذا أنه لا يثور غبار هناك؛ لصلابة المكان وذلك في الغالب، وعلى هذا الرأي الذي يرى أن المقصود بالعاديات الخيل سيكون الحديث عن هذه السورة.

الصورة في سورة العاديات: إذا تأملنا هذه السورة وجدناها تتكون من صور متعددة، ويمكن حصرها في ثلاث صور، هي صورة الخيل، وصورة الإنسان، وصورة البعث والنشور. و كل صورة منها تحمل مجموعة من الآيات يأخذ بعضها في رقاب بعض في امتداد وصعود. والسورة الكريمة تتكون من ثلاثة مقاطع، تعرض جملة من المشاهد **والصور**، ولكل مشهد منها عدد من الآيات توضحه وتجليه، وكل مشهد له خصوصية تميزه من غيره، مما يجعل المتلقي يعيش مع المشهد بكل تفاصيله، ويمتاز كل واحد منها بالألفاظ التي تناسب طبيعة المشهد المعروض، وكل مشهد يختلف عن بقية المشاهد، ولكنه يلتقي مع بقيه المشاهد في نمو وامتداد وصعود، ولقاؤه معها في كونه لبنةً أساسيةً في بناء السورة في عرض المشاهد؛ لتكوين **الصورة** الكلية. وفي الدراسة القادمة عرض للمشاهد **والصور** التي عرضتها السورة الكريمة.

---

(١) انظر الضوء المنير ٥/٤٣٠.

أولا: القسم بالخيل ودلالته البلاغية

(صورة الخيل)

أقسم الله تبارك وتعالى بالعاديات وهي الخيل (لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق وأقسم بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات)[1].

قال ابن العربي: (أقسم الله بمحمد (ﷺ) فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾... الآيات الخمس)[2].

ولسائل يسال كيف يقسم الله بمخلوقاته؟ والجواب والله أعلم نقول: إن الله سبحانه أراد تشريف تلك المخلوقات، والتنويه بها، وإعلاء شأنها، والرد على من ذمها [3].

(والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات، من خلق هذا الحيوان، الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به العز والظفر والنصر على الأعداء)[4].

وأقسم بها تعالى؛ لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، فإنها تصلح للطلب، والهرب، والكر، والفر، فإذا ظننت أن

---

(١) تفسير السعدي ٩٣٣.

(٢) أحكام القرآن ١٦٦/٨.

(٣) انظر أسلوب القسم الظاهر في القران الكريم ٢٦/١.

(٤) التبيان ٧٧.

النفع يكون في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة، وإذا ظننت أن المصلحة تكون في الهرب قدرت على أشد العدو، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم تعالى بفرس الغازي؛ لما فيه من منافع الدنيا والدين، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسك هذه الخيل؛ لا للزينة والتفاخر، بل لهذه المنفعة العظيمة[١].

وأقسم تعالى بالخيل متصفة بصفاتها التي ذكرها آتية بالأعمال التي سردها؛ (لينوه بشأنها ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجد؛ ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية، والتدرب على ركوب الخيل، والإغارة بها؛ ليكون كل واحد منهم مستعداً في أي وقت كان، لأن يكون جزءاً من قوة الأمّة إذا اضطرت إلى صدّ عدو، أو بعثها باعث على كسر شوكته)[٢].

وسميت العاديات أيضاً؛ لاشتقاقها من العدو وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي[٣]، والعاديات متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم، والعاديات جمع عادية وهو اسم فاعل. وهي الجارية بسرعة، من العدو: وهو المشي بسرعة، ويطلق على سير الإبل والخيل خاصة،. والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدوّ[٤].

وقد يوصف بالعدو سير الإنسان ومنه عدَّاءُو العرب، وهم أربعة: السليك بن السلكة، والشنفرى، وتأبط شرا، وعمرو بن أمية الضمري.

---

(١) التفسير الكبير بتصرف ٦٠/٣٢.

(٢) تفسير القاسمي ٦٢٣٨/١٧.

(٣) النكت والعيون ٣٢٤/٦.

(٤) انظر فتح القدير ٤٥/٨ الجدول في إعراب القرآن ٣٨٧/٣٠.

يضرب بهم المثل في العدو[١].

وعرفها إظهارا لشرفها ومكانتها وفضلها، فالخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة كما جاء في حديث النبي (ﷺ). فعن عروة بن الجعد (رضي الله عنه)، عن النبي (ﷺ) قال: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم).[٢]

وجاء تعبير هذا الوصف بالتأنيث "لأنه من صفات ما لا يعقل."[٣]

والضبح: اضطراب النفس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، وهو من أصوات الخيل والسباع تشبيها بالضِّبَاحِ، وهو صوت الثّعلب، وقيل: هو الخفيف العدو، وقد يقال ذلك للعدو، وقيل: الضَّبْحُ كالضبّع، وهو مدّ الضبّع في العدو.

وقيل: أصله إحراق العود، شبّه عدوه به كتشبيهه بالنار في كثرة حركتها[٤].

والضبح نوع من السير، ونوع من العدو. يقال ضبح الفرس: إذا عدا بشدّة، مأخوذ من الضبع، وهو الدفع، وكأن الحاء بدل من العين. قال أبو عبيدة، والمبرد: الضبح من إضباحها في السير[٥]: فالضبح: هو صوت أنفاس الخيل إذا عدون[٦].

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠.

(٢) صحيح البخاري باب الجهاد والسير رقم الحديث ٢٨٥٢.

(٣) التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠.

(٤) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٢٧ و التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠.

(٥) انظر فتح القدير ٤٧/٨.

(٦) انظر معاني القرآن ٢٨٤/٣.

ويرى ابن عباس: أنه ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وقيل كانت تكعم؛ لئلا تصهل فيعلم العدو بهم فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فزع أو تعب(١).

وقال أهل اللغة: وأصل الضبح والضباح للثعالب؛ فاستعير للخيل. وهو من قول العرب: ضبحته النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه(٢).

وضبحا مفعول مطلق لفعل محذوف مبين لنوع العدو، أي يضبحن ضبحا، وهذا الفعل المقدّر حال من العاديات، ويجوز أن تعرب حالا أي ضابحات إذا أريد به الصوت الذي يتردد في جوفها حين العدو(٣).

وليس المراد بالصوت الصهيل. بل قولها: أح أح، كما قاله ابن عباس فهو تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهيل ولا رغاء ولا نباح، بل هو غير الصوت المعتاد من صوت الحيوان الذي ينسب هو إليه.(٤)، ولذلك قال ابن القيم عن الضبح (صوت يسمع من أجوافها ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو)(٥)، ومعنى هذا أن هذه الخيل تخرج هذا الصوت نتيجة العدو السريع والفم مغلق لأنه لو فتحت فمها كان ذلك صهيلا.

وسر التعبير بهذه اللفظة دون غيرها؛ لبيان المبالغة في الركض حتى

---

(١) انظر القرطبي ١٥٥/٢٠.

(٢) انظر القرطبي ١٥٥/٢٠.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٤٣٨/٣٠ إعراب القران وبيانه ٥٥٢/١٠.

(٤) انظر روح المعاني ٤٤١/١٥.

(٥) التبيان ٧٦.

أصدرت ذلك الصوت، وهو الضبح الذي يدل على تغير حالتها من حال إلى حال.

فهذه اللفظة أصابت غرضها؛ لقوة تصويرها حالة الخيل، فالضاد بفخامتها والباء التي تخرج من الشفتين مع الحاء التي تخرج من وسط الحلق، كل ذلك له دلالته، واللفظة بصياغتها تصور المشهد بقوة جرسها وإيحائها، فهذا الصوت الذي يخرج من صدورها، يدل على قوة سعيها وشدته حتى أصدرت ذلك الصوت غير المعتاد، مما يسهم في أداء المعنى المراد تصويره، وتعميق صورته في أذهاننا، حتى كأننا نشاهده، فالتعبير بهذه اللفظة يرتكز على معنى الجملة بعامة ؛ لأن عدوها ليس العدو المعتاد، وصوتها ليس الصوت المعتاد، فهذا المعنى نستوحيه من المعنى العام للآية.

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ الفاء عاطفة، والموريات عطف على العاديات[1]. والفاء تفيد معنى الترتيب لفظا ومعنى، أو لفظا دون معنى، والتعقيب[2].

والمقصود بها الخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة، من شدة الجري[3].

والموريات: واحدها مورية من الإيراء، وهو إخراج النار، تقول: أورى فلان إذا أخرج النار بزند ونحوه والقدح: الضرب لإخراج النار

---

(١) انظر إعراب القران وبيانه ٥٥٢/١٠.

(٢) انظر رصف المباني ٤٤٠.

(٣) انظر صفوة التفاسير ٥١٥/٣.

كضرب الزناد بالحجر[١].

فهذه الخيل تورى النار بحوافرها، والإيراء يترتب عليه؛ لأنه إخراج النار وإيقادها، فإيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة. ولما كان مرتباً على عدوْها عطفهُ بالفاء[٢].

والقداحة والقداح: الحجر الذي يُورِي النار ويقال: قدحت الحجر بالحجر، أي: صككته به[٣]، ومعلوم أنه حينما يضرب الأحجار بعضها بعضاً تقدح النار ويظهر الشرر. والقدح هو الحك الشديد بالشيء الصلب لبعث الشرر[٤]، والتعبير بالقدح كناية عن الإمعان في العدو وشدة السرعة في السير[٥].

وسر التعبير بالقدح له دلالته، فهو يدل على سرعة جريها وقوته، وشدة الضرب بتلك الحجارة، حتى أحدثت ذلك الشرر الذي ينقدح من احتكاك حوافرها الصلبة بالصوّان، فهذه اللفظة أعطتنا دقة الوصف لتلك الحالة ولا تنوب لفظة أخرى عنها في تأدية المعنى المراد تصويره.

فهذه الخيل لقوة سعيها وشدته، وضربها الأرض، إذا ضربت الحجر ضرب الحجر الحجر الثاني فقدح ناراً، وهذا ناتج من فهمها للدور المناط بها، فهي لا تتردد واثقة من هدفها، بل تسير بسرعة متجهة لهدفها دون تردد، ومن قوة سعيها وضربها للأرض وشدة جريها ومراسها وقوة

---

(١) انظر تفسير المراغي ٢٢٢/٣٠.

(٢) انظر تفسير القاسمي ١٧/ ٦٢٣٧.

(٣) انظر تفسير اللباب/٥٣٢٩.

(٤) انظر التفسير الحديث ٧/٢.

(٥) انظر التحرير والتنوير ٥٠٠/٣٠.

اصطدامها ينتج ذلك الأثر وهو القدح، الذي يجعل السامع والمتلقي كأنه يشاهد تلك **الصورة** ويتملاها ويعايشها.

وهذه النار التي تخرج من ذلك القدح لا نفع فيها ولافائدة،و تسمى نار الحباحب، والحباحب اسم رجل كان بخيلاً لا يوقد النار إلا إذا نام الناس، فإذا انتبه أحد أطفأ ناره؛ لئلا ينتفع بها أحد، فشبهت هذه النار التي تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع(١).

وفي هذا ما يشير إلى أن الخيل تسير تحت جنح الظلام بفرسانها خفية حتى لا تراها عين العدوّ، وحتى لا ينذر بها هذا العدوّ، ويأخذ حذره من المفاجأة حين تطلع عليه على غير انتظار، ولهذا يظهر هذا الشرر الذي ينقدح من احتكاك حوافرها بالصوّان(٢). وجوّز في نصب قدحاً ثلاثة أوجه: النصب بإضمار فعله، والنصب باسم الفاعل قبله لأنه ملازمة، والنصب على الحال(٣).

وهناك معان أخر للقدح منها أن يراد به قدح النيران بالليل حين نزولهم لحاجتهم وطعامهم، وجوز أن يكون ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ مستعار لإثارة الحرب لأن الحرب تشبه بالنار. قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، فيكون {قَدْحًا} ترشيحا لاستعارة ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ ومنصوبا على المفعول المطلق لـ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ وجوز

---

(١) انظر تفسير الرازي ٦٢/٣٢.

(٢) انظر التفسير القرآني ١٦٥٤/١٦.

(٣) انظر اللباب ٤٥٧/٢٠.

أن يكون ﴿قَدْحًا﴾ بمعنى استخراج المرق من القدر في القداح لإطعام الجيش أو الركب، وهو مشتق من اسم القدح، وهو الصحفة فيكون ﴿قَدْحًا﴾ مصدرا منصوبا على المفعول لأجله(١).

ويرى ابن القيم أن هذه الأقوال إن أريد بها أن اللفظ دال عليها وأنها هي المراد فغلط، وإن أريد أنها أخذت عن طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب(٢).

ولهذا يرى الرازي أن الرأي الصحيح هو الأول لأنه قول أكثر المفسرين، و لأنه حقيقة لا مجازا (واعلم أن الوجه الأول أقرب لأن لفظ الإيراء حقيقة في إيراء النار، وفي غيره مجاز، ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل.)(٣)

والقدح يتقدم على الإيراء بخلاف الضبح حيث تأخر ويتسبب عن العدو، والمعنى تورى النار من حوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة، فالقدح استعارة لضرب الحجارة بحوافرها(٤).

فهذه الخيل تجري جريا شديدا فيصدر منها ذلك الصوت غبر المعتاد، الذي يشبه صوت الإنسان حين يسرع في جريه فيلهث ويخرج نفسه، وهذه السرعة من الخيل يتوقد منها شرر النار من شدة احتكاك حوافرها بالحجارة، وهذا التوقد يظهر ليلا ونهارا' ولكنه أشد ظهورا في الليل، والألفاظ ترسم لنا صورة تلك الخيل حتى يتفاعل معها المتلقي ويعايشها،

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٠.
(٢) انظر بدائع التفسير ٣/٣٥٠.
(٣) التفسير الكبير ٣٢/٦٢.
(٤) انظر روح البيان ١٠/٣٨٣.

وكأنه يشاهدها أمامه.

وهذه الخيل العادية الضابحة الموريـــة تغيـــر فـــي الـــصباح ولهـــذا قـــال سبحانه: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾: التي تغير علـــى العـــدوّ وقـــت الـــصباح، يقـــال أغار يغير إغارة إذا باغـــت عـــدوّه بقتـــل، أو أســـر، أو نهـــب وأغـــار وغـــار نزل الغور، وهو المنهبط من الأرض(١).

فالذي يغير في الصباح يباغت عدوه قبل أن يستعد لـــه. وقـــد أشـــار إلـــى ذلك ابن القيم عن سر تخصيص الإغـــارة بوقـــت الـــصبح بقولـــه: (وأصـــحاب الإغارة حامون مـــستريحون يبـــصرون مواقـــع الغـــارة والعـــدو لـــم يأخـــذوا أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم)(٢) ففيه دلالة علـــى المفاجـــأة، وهـــذا يعنـــي أن الخيل تغير على العدو وقت الصبح، وكانوا يغيـــرون صـــباحا؛ لأنهـــم فـــي الليل يكونون في الظلمة فلا يبـــصرون شـــيئا، وأمـــا النهـــار فالنـــاس يكونـــون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة، أما هذا الوقت فالنـــاس يكونـــون فيـــه فـــي غفلة وعدم استعداد ومباغتة.

عن ابن عباس وأكثـــر المفـــسرين أنهـــم كـــانوا إذا أرادوا الغـــارة ســـروا ليلا، ويأتون العدو صبحا؛ لأن ذلك وقـــت غفلـــة النـــاس، وهـــو المعتـــادُ فـــي الغاراتِ يعدونَ ليلاً؛ لئلا يشعرُ بهمْ العـــدوّ ويهجمـــونَ علـــيهمْ صـــباحاً ليَـــرَوا مَا يأتونَ ومَا يذرونَ.(٣)

وكان رســـول الله (ﷺ) يغيـــر صـــباحًا ويتـــسمّع أذانـــا، فـــإن ســـمع وإلا

---

(١) انظر اللباب٢٠ /٤٥٩، وفتح القدير ٤٥/٨ ت.

(٢) التبيان٨٧ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٦٢/٣٢، تفسير أبي السعود ٤٨/٧.

أغار[١].

ويبرز هنا سؤال لماذا نسب الإغارة للخيل والمغيرون هم الفرسان والجواب والله أعلم «للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم»[٢]، وإسناد الإغارة إلى ضمير {**الْعَادِيَاتِ**} مجاز عقلي فإن المغيرين راكبوها، ولكن الخيل أو إبل الغزو أسباب للإغارة ووسائل[٣]، وقيل بتقدير المضاف والأصل فالمغير أصحابها، أي فالتي يغير أصحابها على العدو عليها[٤].

ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ** ﴾ وقيل إن السبب في الإغارة في الصباح لكرمهم وعزهم: يغيرون نهارا و على هذا المعنى (يكون معنى {**صُبْحاً**} أي علانية، تشبيها بظهور الصبح)[٥]، حتى لا يكون في ذلك نوع من الجبن والمخاتلة، بل يكون علانية.

وقد تطلق الإغارة على الاندفاع في السير أو السرعة في السير[٦]، وصبحا ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (المغيرات) [٧].

يقسم اللّه سبحانه بهذه الخيل المنطلقة لهدفها، المسرعة في حركتها حتى تصل لمرادها في الوقت المحدد، والآيات ترسم لنا صورة هذه الخيل كأننا نشاهدها أمامنا مصورا باللفظة المختارة التي تسهم بقوة جرسها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٦٥/٨.
(٢) انظر أبي السعود ٤٨/٧.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٥٠٠/٣٠.
(٤) انظر روح المعاني ٤٤١/١٥.
(٥) تفسير القرطبي ١٥٥/١٠.
(٦) انظر السابق ١٥٥/١٠، التحرير والتنوير ٥٠٠/٣٠.
(٧) انظر الجدول في إعراب القرآن ٣٨٩/٣٠.

وإيحائها في أداء المعنى المراد تصويره منذ أن تبدأ العدو وحتى تصل إلى غايتها من هذا الجري الشديد، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو.

وبعد أن وصف الله (ﷻ) هذه الخيل بهذه الأوصاف انتقل الحديث لبيان ما ترتب على تلك الأوصاف من إثارة النقع، وتوسط الجمع، فتغير أسلوب الكلام من الاسم إلى الفعل؛ ليبين أن القسم هو في الأوصاف الثلاثة (لأن إثارة النقع وتوسط الجمع من آثار الإغارة صبحا، وليس مقسما بهما أصالة وإنما القسم بالأوصاف الثلاثة الأولى)[1] فقال سبحانه: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ جيء بهما فعلين ماضيين، ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل؛ للإشارة إلى أن الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة، ما قصد منها بالظفر بالمطلوب، الذي لأجله كان العدو والإيراء، والإغارة عقبه، وهي الحلول بدار القوم الذين غزوهم، فالقسم بها؛ لأجل التهويل والترويع لإشعار المشركين بأن غارة تترقبهم، وهي غزوة بدر، مع تسكين نفس النبي (ﷺ) من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المنذر بن عمرو، فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجا للاطمئنان[2].

والفاء العاطفة لقوله: {**فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا**} عاطفة على وصف {**الْمُغِيرَاتِ**}، والمعطوف بها من آثار وصف المغيرات. وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاث التي قبلها[3].

واختلف في الضمير (به) فقيل يعود على الوادي وإن لم يتقدم له

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠٢/٣٠.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥٠٢/٣٠.

(٣) انظر السابق ٥٠٢/٣٠.

ذكر، وهو مكان العدو، وقيل يعود على الصبح، أي فأثرن به في وقت الصبح[١]. ويرى أبو حيان أن الضمير في(به) عائد على الصبح، (أي هيجن في ذلك الوقت غبارا. لأنه مذكور بالصريح)[٢]، وأقول و لا مانع من ذلك كله؛ لأن العدو لابد له من مكان مقيداً بزمن والله اعلم.

وعلى كلّ من التفسيرين أعني المكان والوقت فالباء من (به) بمعنى (في) وكل ما يتعدى بفي يتعدى بالباء ولا عكس. [٣]

ومعنى أثرن في قوله "**فأثرن به نقعا**": أصعدن غبارا من الأرض من شدة عدوهن، والإثارة: الإهاجة، والنقع هو الغبار[٤]، وإثارة الغبار دليل على شدة العدو، وكثرة الكر والفر.

وهنا سؤال لماذا خصص إثارته بالصبح والجواب (لأنه لا يثور أو لا يظهر ثورانه بالليل وبهذا ظهر أن الإيراء الذي لا يظهر في النهار، واقع في الليل)[٥].

وقيل النقع الصياح والجلبة وقرئ فأثرن بالتشديد بمعنى فأظهرن به غباراً؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار[٦].

والمعنى أن هذه الخيول أثرن الغبار؛ لشدة العدو فملأ الغبار ذلك الموضع الذي أغرن فيه، وسر التنكير في نقعا والله أعلم لبيان أثر ذلك

---

(١) انظر إعراب القران وبيانه ٥٥٢/١٠، والكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد ٤٤٨/٦.
(٢) البحر المحيط ٥٢٦/١٠.
(٣) انظر إعراب القرآن وبيانه ٥٥٢/١٠.
(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٠١/٣٠.
(٥) تفسير أبي السعود ٤٨/٧.
(٦) السابق ٧ /٤٨.

الغبار، وأنه انتشر انتشارا واسعا ملأ الآفاق وأربك العدو. قال حسان بن ثابت (ﷺ):

عدمنا خيلنا إن لم تروها ** تثير النقع موعدها كداء[1].

والآية كناية عن شدَّة هذه الخيل، واجتماعها وكثرتها، وسرعتها.

وهنا سؤال لماذا عطف الفعل على الاسم ؟

عطف الفعل على الاسم، لأن الاسم في تأويل الفعل لوقوعه صلة لـ "أل[2]". قال الزمخشريُّ: (معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، يعني في الأصل؛ إذ الأصل: واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن)[3].

والحكمة في مجيء هذا فعلا بعد اسم فاعل، هو تصوير هذه الأفعال في النفس(فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم، لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة)[4].

وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة، لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب. وهي الخيل التي يجاهد عليها العدو من الكفار، ولا يستدل على أنها الإبل بوقعة بدر، وإن لم يكن فيها إلا فرسان، لأنه لم يذكر أن سبب نزول هذه السورة هو وقعة بدر، ثم بعد ذلك لا يكاد يوجد أن الإبل جوهد عليها في سبيل الله، بل المعلوم أنه لا يجاهد في سبيل الله

---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت ص٤.

(٢) انظر اللباب ٤٥٩/٢٠.

(٣) الكشاف ٧٨٨/٤.

(٤) روح المعاني ٤٤١/١٥.

تعالى إلا على الخيل في شرق البلاد وغربها[١]، والله أعلم.

قوله: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾. أي توسطنَ بذلك الوقتِ أو توسطنَ ملتبساتٍ بالنقعِ **(جَمْعاً)** من جموعِ الأعداءِ والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو[٢].

قال الليث: وسطت النهر والمفازة أي صرت في وسطها، وكذلك وسطتها وتوسطها[٣]، والفاء للدلالة على ترتب ما بعد كل منها على ما قبلها [٤].

قوله تعالى: **(جَمْعاً)** يعني جمع العدو، والضمير في (به) يجوز أن يكون للوقت أي الصبح ويجوز أن يكون للمكان، وكذلك يمكن أن يعود للنقع أي ملتبسات به أي وسطن بالنقع الجمع، وأيضا يمكن أن يكون للعدو قال مقاتل أي بالعدو وذلك أن العاديات تدل على العدو فجازت الكناية عنه[٥] و**(جَمْعاً)** على هذه الأوجه: مفعول به [٦]. وتفيد لفظة **(جمعا)** أن هذه الخيول بعدوها الشديد وإن جاءت فرادى، وهي متجهة إلى ميدان القتال، فإنها لا تشتبك مع العدوّ في الحرب إلا مجتمعة، فتتوسط جمع الأعداء حيث يضرب المغيرون عليها عدوّهم مجتمعين.

وفيه ملمح آخر إلى أنّ هذه الخيل إنما تدخل المعمعة بفرسانها،

---

(١) انظر البحر المحيط ٥٢٦/١٠.
(٢) انظر التفسير الكبير ٦٢/٣٢.
(٣) السابق ٦٢/٣.
(٤) أبي السعود ٤٨/٧.
(٥) انظر التفسير الكبير ٢٦/٣٢ وروح المعاني ٤٤١/١٥.
(٦) اللباب ٤٦٢/٢٠.

وتهجم على قلب العدوّ، وتدخل في كيانه، لا أنها تخطف الخطفة من بعد، دون أن تلتحم بالعدوّ، وتختلط به[1].

ومعنى هذا أن الخيل لا تهجم على العدو إلا مجتمعة حتى يكون التأثير قويا ليتمكنوا من عدوهم **فالصورة** أمامنا نشاهدها حاضرة، واللفظة ترسمها، فهؤلاء الفرسان يندفعون في قلب العدو مجتمعين، ويقعون عليه كالصاعقة.

ويرى الطيبي أن الخيل وصفت بالأوصاف الثلاثة؛ ليرتب عليها ما قصد من الظفر بالفتح فجيء بهذا الفعل الماضي، وما بعده مسببين عن أسماء الفاعلين فأفاد ذلك أن تلك المداومة أنتجت هاتين البغيتين[2].

في حين يرى صاحب التفسير القرآني أن عطف الفعلين الماضيين على الاسم قبلهما يشعر بأن الفعلين داخلان في القسم فيقول (وفي العطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾- في هذا ما يشعر بأن هذين الفعلين من أفعال الخيل العاديات، وأنهما داخلان في حيّز القسم بها، والتقدير: والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فالمثيرات به نقعا، فالمتوسطات به جمعا)[3].

وأقول لاشك أن تغير الأسلوب من الاسمية إلى الفعلية يبين أن تلك الصفات الثلاث هي المقسم بها، وأن تغير الأسلوب يشير إلى نوع من الاستغراق والتفصيل في الإغارة من خلال استخدام أسلوب الفعل، الذي يدل على مزيد من التصوير، وأن هذه الخيل المنطلقة لهدفها حققت

---

(١) انظر التفسير القرآني ١٦٥٤/١٥.

(٢) انظر روح المعاني ٤٤١/١٥.

(٣) التفسير القرآني ١٦٥٤/١٥.

بغيتها، من خلال إثارة الغبار الذي ارتفع إلى عنان السماء، وأربكت الأعداء وزادت من معاناتهم، وأنها لمراسها وسرعتها توسطت جمع الأعداء، وهذا يدل على المباغتة و المفاجأة للعدو، وشدة الاقتحام، وسرعة الالتحام، وتحقيق الانتصار، وبهذا يتبين أن الأوصاف الثلاثة السابقة صفات دائمة في الخيل وأن هذين الفعلين أثران للأوصاف السابقة وداخلان في حيز القسم؛ لأنهما يبينان آثار تلك الغارة ونتائجها، ويحقق هذا العطف بالفاء، والتنكير في "نقعا" وما في الفعل "وسط" من خفة، ومجيء هذه الأفعال المعطوفة قبل جواب القسم يجعل دخولها في حيز القسم مقبولا وغير ممتنع. والله أعلم.

ولذلك يرى ابن القيم أن ذكر الفعل في [**أثرن**] و[**وسطن**] أحسن من ذكر الاسم فهو سبحانه قسم الأفعال قسمين وسيلة وغاية (فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع، فهن عاديات موريات مغيرات حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع، فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه)[1].

وكتاب الله يصور المعاني والأفكار تصويرا رائعا ويتجسد هذا في هذه **الصورة** الرائعة المتحركة المملؤة بالحياة وكأنه مشهد نراه ونحسه.

فإن الألفاظ بجرسها وإيقاعها وإيحائها تساعد على رسم **الصورة** وإعطائها أبعادها، ويجسد ذلك اختيار الألفاظ الملائمة المعبرة، و دقة الوصف لتلك الخيل الماضية لهدفها، وهو الجهاد في سبيل الله.

(فجاء التعبير مصورا مبرزا لتلك **الصورة**، فلنتصور هذين المصدرين بإيقاعهما وجرسهما (ضبحا، قدحا) فإنهما يصوران عنف

(١) بدائع التفسير ٣/٣٥٠.

الخيل الماضية إلى الجهاد، واستعمال الصفات التالية: (العاديات- الموريات- المغيرات) فإنها تكمل **الصورة** وتمنحها بعدها المعنوي والنفسي وفي قوله تعالى: **(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)** تكتمل **الصورة**، ونحس بالحركة والحياة تسري من خلال هذا التعبير الرائع، ومن تناسق التعبير)[١].

وفي هذه **الصورة** جمال في العرض وقوة في الأداء، فالألفاظ بجرسها وإيقاعها وإيحائها جعلتنا نعايش الحدث ونتملاه. (وهنا يبلغ المشهد ذروته ثم يترك للتصور أن يذهب كل مذهب)[٢].

إنَّ ما تختم به الآيات الكريمات في هذا المقطع هو الحاء والتنوين في ضبحاً وقدحاً، وصبحاً، والعين والتنوين، نقعاً، وجمعاً. وهذا الختام له وقعه وجماله وتسمى الفاصلة:

وهي (كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع)[٣].

والفاصلة القرآنية لها صبغتها المتميزة وغرضها وهي تباين قرينة السجع وقافية الشعر(ولم تلتزم فواصل القرآن العزيز حرف الروي دائما التزام الشعر والسجع، ولم تهمله إهمال النثر المرسل، بل كانت لها صبغتها المتميزة)[٤]، فالقرآن الكريم ينتقي الفاصلة التي تلائم مضمون الآية، وتناسب إيقاع النص كلّه، فلا نجد الانقطاع بين الآية والتي تليها بل الانسجام من جراء ما تجلبه للسياق العام. وفي الآيات السابقة نجد

---

(١) الجدول في إعراب القرآن ٣٩١/٣٠.

(٢) التفسير البياني للقرآن ١١٠/١.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٥٣/١.

(٤) الفاصلة في القرآن ص ١٤٥.

الانسجام العجيب، وانتظام **الصورة** على فاصلة تنسجم معها جميع الآيات، ورغم أن الفاصلة اختلفت في الآيات الثلاث عن الآيتين الأخيرتين، إلا أن الآيات بإيقاعها وجرسها وإيحائها وقصر فواصلها تناسب صورة جري الخيل وضبحها وإثارة الشرر والغبار وتوسط الجمع.

وانفراد القرآن بالفاصلة دليل على إعجازه، (فالفاصلة ليست معجزة وحدها، بل هي جزء يسهم في الإعجاز، وأيّ جزء)[1]؛ فهذه الفواصل رغم اختلافها تناغمت مع **الصورة** رغم اختلاف الإيقاع، مما جعلنا نعيش في انسجام تام مع صورة الخيل، وهي تنطلق إلى هدفها وتحقيق غايتها.

(١) الفاصلة في القرآن ص ٣١٩.

ثانيا: المقسم عليه (صورة الإنسان)

يلاحظ أن شرف المقسم به يتناسب مع شرف المقسم عليه، وقوة الأول تتناسب مع قوة الثاني، ومن ثم كانت العلاقة بينهما، فالخيل أشرف الحيوانات وأقواها في الحرب والسلم، والإنسان له مكانة من التكريم عالية، ولكن إذا تجاوز حده كان ذلك جحودا لنعم ربه، ولذلك حين حاد عن الحق وصفه بقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

فهذه الآيات جواب القسم بالعاديات [1]وجواب القسم أو المُقسَم عليه، أمور ثلاثة[2]. وهي الآيات الثلاث السابقة.

و في هذه الآيات تنديد ببعض أخلاق الإنسان، وإنذار له أنه كنود جاحد لنعمة اللّه، مع ما يشهده من آثار أفضال اللّه عليه، التي توجب شكر المنعم المتفضل، لكنه مستغرق في حب المال مجد في طلبه وتحصيله، مقدم شهوة نفسه على حق ربه.

والمرادُ بالإنسانِ بعضُ أفرادِه[3]، والآية فيها جملة من المؤكِّدات: وهي إن، واللام المُزحلَقة، واستعمال الجملة الاسميَّة، وهذا التوكيد لتنزيل المخاطب منزلة المنكر، وهذا ما يسمَّيه البلاغيون الخبر الإنكاري وهو الذي يجب توكيده بحسب الإنكار فتقول إني صادق لمن ينكر صدقك ولا

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١٦٥٨.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٦٢/٣٢.

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٤٨/٧.

يبالغ في إنكاره وإني لصادق لمن يبالغ في إنكاره[١].

فهذا الإنسان يُنكِر أنه جاحد وكافر بنعمة ربه فتأتي التوكيدات لتؤكِّد له أنه منكر لجحوده ومبالغ في ذلك الكنود. ومعنى كنود أي: كفور لنعمة ربه، كقولهم: أرض كَنُودٌ: إذا لم تنبت شيئا.[٢]، ويقال رجل كنودٌ، وامرأة كنود وكند، وكند النعمة: كفرها، ومنه: كندة: لأنه كند أباه ففارقه، وتقول: فلان إن سألته نكد، وإن أعطيته كند...، ومن المجاز: أرض: كنود لا تنبت[٣]: فالأرض توصف بذلك من باب المجاز على التوسع في اللغة، ولكن الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات يوصف بذلك.

وهذه اللفظة وحيدة في القرآن صيغة ومادة [٤]. ثم للمفسرين عبارات كثيرة في تفسير الكنود فابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة يرون أن الكنود هو الكفور قالوا: ومنه سمي الرجل المشهور كندة؛ لأنه كند أباه ففارقه. وعن الكلبي الكنود بلسان كندة العاصي، وبلسان بني مالك البخيل، وبلسان مضر وربيعة الكفور، وروى أبو أمامه عن النبي (ﷺ) أن الكنود هو الكفور الذي يمنع رفده ويأكل وحده ويضرب عبده. وقال الحسن الكنود اللوام لربه يعد المحن والمصائب، وينسى النعم والراحات[٥]، ويقول القرطبي: (هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود. وقد فسر النبي (ﷺ) معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال

(١) انظر الإيضاح في علوم البلاغة ٢٢/١.
(٢) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ٤٣٩.
(٣) أساس البلاغة ص ٤١٣.
(٤) التفسير البياني للقران ١١١.
(٥) انظر تفسير القرطبي ١٦٠/٢٠ فتح القدير ٤٦/٨.

غير محمودة، فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال)[1]، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام؛ والجاحد للنعمة كافر لها، ولا يناسب المقام سائر ما قيل ويرى صاحب أضواء البيان أن الاختلاف من باب التنوع يقول (ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع، لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم)[2].

وكنود: صيغة مبالغة من (كند) النعمة أي كفر بها، وزنه فعول للمذكّر والمؤنّث[3]، والتعريف في {**الإِنسَانَ**} تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبا، أي أن جنس الإنسان، إذا لم يوفق للهداية فإنه {لكنود} أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه، أي كفور لنعمة الله (ﷻ).[4] قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوت بين الناس(ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكمل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر جبلي لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره. وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته؛ لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته)[5].

وسر هذه الجملّة – (أن الإنسان يحصر همه فيما حضره، وينسى

---

(١) تفسير القرطبي ١٦٢/٢٠.
(٢) أضواء البيان ٦١/٩.
(٣) انظر الجدول في إعراب القرآن ٣٧٨/٣٠.
(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٠٣/٣٠.
(٥) التحرير والتنوير ٥٠٢/٣٠-٥٠٣.

ماضيه، وما عسى أن يستقبله، فإذا أنعم اللّه عليه بنعمة غرته غفلته، وقسا قلبه، وامتلأ جفوة على عباده)[1].

والمقصود بالإنسان هنا الجنس، وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، قال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال مقاتل: نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي[2].

فعلى هذا يكون عامًّا أريد به الخاص، والأظهر أن المراد به العموم، وأن جنس الإنسان لولا هداية الله لكان كنوداً لربه (ﷻ).[3]

وهذا يدل على أن هذه الصفات الذميمة من طبيعة الإنسان وجبلته إلا ما هذبه الشرع، ولذلك قال الرازي (واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفرا أو فسقا وكيفما كان، فلا يمكن حمله على كل الناس، فلا بد من صرفه إلى كافر معين، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك، إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك، والأول قول الأكثرين)[4].

وهذا شأن كثير من الناس، بل هو شأن معظم الناس، ولهذا جاء الحكم مطلقا، إذ ليس في الناس إلا قلة قليلة هي التي تعرف فضل اللّه عليها، وإحسانه إليها، ومع هذا فإنها لن تبلغ مهما اجتهدت، ما ينبغي للّه سبحانه من حمد وشكر.[5]

---

(١) تفسير المراغي٣٠/٢٢١.
(٢) انظر زاد المسير٦/١٨٤.
(٣) تفسير القرآن الكريم٢٩٧.
(٤) التفسير الكبير٣٢/٦٢.
(٥) انظر التفسير القرآني ١٥/١٦٥٩.

ومادام أن هذا شأن معظم الناس فلاشك أن هؤلاء المجاهدين في سبيل الله قد ساروا على خلاف طبعهم، ولذلك قال الألوسي: (وفيه مدح للغزاة لسعيهم على خلاف طبعهم)[1].

فالإنسان طبع على نكران الحق وجحوده، وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له، إلا من عصمهم الله، وهم الذين روّضوا أنفسهم على فعل الفضائل، وترك الرذائل، ما ظهر منها وما بطن[2].

وهذه **الصورة** التي جسدتها الآيات للإنسان غاية في الذم، فهو جحود لنعم ينعم الله عليه بها فيجحد ها ولا يشكرها ولا يؤديها، فهو دائم التذمر والشكوى، ينسى النعم التي أنعم بها مولاه عليه، فربه يكرمه ويعطيه، وإذا أراد منه أن يخلص له و يطيعه ويسجد له تلكأ وتأخر، ولا يشكر، فهو دائم التذمر والسخط، إذا أصابته يوماً ضراء نسي نعم الله التي يرفل بها فيما مضى من أيامه، وذكر مصابه وآلامه الحاضرة، فهو ظلوم كفار، ينسى فضل الله (ﷻ) عليه. وهذا أمر لا يليق بالمسلم الذي منّ عليه ربه بأصناف النعم وأنواع الإحسان، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، والقسم هنا وجوابه فيه ذم لهذا الإنسان الجاحد، وفيه مدح لهذا الحيوان الأعجم البهيم، فهو ليس جاحدا لصاحبه الذي أكرمه وتفضل عليه، كهذا الإنسان الجاحد الظلوم الجهول فهو وفي له، ولا ينسى من أسدى له معروفا، فإذا جاء اليوم الموعود والحاسم أقدمت تلك الخيل ودخلت في ساحات المعارك؛ تريد أن تنتصر لصاحبها الذي أكرمها فتعطيه غاية جهدها؛ تقديرا لصاحبها الذي لم يبخل عليها في يوم من الأيام، فهي

---

(١) روح المعاني ٤٤٣/١٥.

(٢) انظر تفسير المراغي٢٢٢/٣٠.

ليست كنودة وجاحدة لمن أكرمها، أما الإنسان الكنود فهو لم يقم بحقوق خالقه وموجده، بل هو كنود جاحد، لم يكن شيئا مذكورا ثم خلقه ربه في أحسن تقويم، وأفاض عليه النعم الكثيرة، ويقابل ذلك بالنكران والجحود. وجاحد لمن؟ إنه للرب الذي خلقه وأوجده وسواه وعدله وركبه في أحسن صورة. وجواب القسم هنا يشير إلى غاية الذم لهذا الإنسان، في حين أنه مدح وإشادة بهذا الحيوان، فكيف يكون الخيل أفقه منك وأحسن حالاً، ولذا جاء التوبيخ عنيفا بهذه الصيغة القوية [كنود] التي تجمع جميع المساوئ فالحيوان الأعجم قام بحقوق سيده وأداها، في حين أن هذا الإنسان الذي فضله ربه على كثير ممن خلق وأكرمه مولاه بجميع النعم، وأسداها إليه، لكنه لم يف بحقوق خالقه، ويقابل الإحسان بالإحسان، ولم ينصرف للغاية التي خلق من أجلها وهي عبادة الله وحده دون سواه. وفي الآية مدح لأولئك الرجال الذين يخوضون غمار الحروب؛ لأنهم روضوا أنفسهم وخالفوا طباعهم، وعصمهم الله بلطفه وتوفيقه. فهؤلاء قاموا بحقوق خالقهم، و قهروا أنفسهم، وسعوا للارتقاء بها والتسامي، ولم يركنوا إلى طباعهم.

وتقديم **{لِرَبِّهِ}** لإفادة الاهتمام بمتعلق هذا الكنود؛ لتشنيع هذا الكنود بأنه للرب الذي هو أحق الموجودات بالشكر، وأعظم ذلك شرك المشركين، ولذلك أكد الكلام بلام الابتداء الداخلة على خبر "إن" للتعجيب من هذا الخبر(١).

ويرى الألوسي أن التقديم فيه الذم البالغ لهذا الإنسان؛ لكنود نعمته

(١) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٤

(ﷻ) وقيل للتخصيص على سبيل المبالغة.[١]

وكلمة الرب فيها معنى الحنو واللطف والمربي والمصلح فكيف يقابل من هذه صفاته بهذا الجحود والنكران.

والمقصود في هذه الجملة تفظيع كنود الإنسان بأنه معلوم لصاحبه بأدنى تأمل في أقواله وأفعاله [٢].

ومع كنوده، ولجاجته في الطغيان، وتماديه في الإنكار والبهتان، إذا خلّى ونفسه رجع إلى الحق، وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على نعمه، فأعماله كلها جحود لنعم اللّه، فهي شهادة منه على كنوده[٣]، لذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ "اسم الإشارة مشار به إلى الكنود المأخوذ من صفة" كنود[٤].

أي على كنوده لشهيد. والشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر، أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردا[٥].

والشهيد: يطلق على الشاهد هو المخبر بما يصدق دعوى مدع، ويطلق على الحاضر ومنه جاء إطلاقه على العالم الذي لا يفوته المعلوم، ويطلق على المقر؛ لأنه شهد على نفسه[٦].

والشهيد هنا يحتمل معنيين: إما بمعنى المقر والمعنى: أن الإنسان

---

(١) انظر روح المعاني ١٥/٤٤١.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٤.
(٣) انظر تفسير المراغي ٣٠/٢٢٢.
(٤) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٤.
(٥) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٠٠.
(٦) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٤.

مقر بكنوده لربه من حيث لا يقصد الإقرار، وذلك في فلتات الأقوال وفي فلتات الأفعال(١).

ويجوز أن يكون "**شهيد**" بمعنى "**عليم**" ومتعلق "**شهيد**" محذوف دل عليه المقام، أي عليم بأن الله ربه ويكون معنى {**عَلَى ذَٰلِكَ**} بمعنى: مع ذلك، أي مع ذلك الكنود هو عليم بأنه ربه مستحق للشكر والطاعة لا للكنود، وحرف {على} يأتي بمعنى "مع" كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ**﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿**وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ**﴾ [الإنسان: ٨](٢).

واختلف في عودة الضمير في [إنه] قيل المقصود به الإنسان قاله الحسن ومحمد بن كعب وقال ابن عباس وقتادة: إن الضمير عائد على اللّه تعالى أي وإن ربه سبحانه شاهد عليه فيكون الكلام على سبيل الوعيد(٣).

واختار هذا الرأي التبريزي فقال: هو الأصح؛ لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور قبله(٤).

ولذلك أجاز الزمخشري أن يعود الضمير على اللّه فقال: «وقيل وإن اللّه على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد)(٥).

ولاشك أن الضمير يحتمل هذا وذاك، لكن حمله على أن المقصود به الإنسان أظهر وأولى حتى تتحد الضمائر، أما ما يقوله النحويون من أن

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٤.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٥.
(٣) انظر روح المعاني ١٥/٤٤١.
(٤) انظر روح المعاني ١٥/٤٤١.
(٥) الكشاف ٤/٧٨٦.

الضمير يرجع إلى أقرب مذكور يترجح هذا إذا تساويا في المعنى وهنا المتحدث عنه هو الإنسان والمسند إليه هو الكنود ولذلك قال أبو حيان(ولا يترجح بالقرب إلا إذا تساويا من حيث المعنى؛ والإنسان هنا هو المتحدث عنه والمسند إليه الكنود، وأيضا فتناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنى أولى من جعلهما لمختلفين، ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين على واحد) [1]، والله أعلم ولذلك قال: الألوسي مرجحا الأول (واتساق الضمائر، وعدم تفكيكها، يرجح الأول فإن الضمير السابق أعني ضمير [لِرَبِّهِ] للإنسان ضرورة وكذا الضمير اللاحق)[2].

وهناك رأي للشيخ محمد بن عثيمين يحسن إيراده في هذا المقام فبعد أن ذكر الخلاف في هذا قال (والصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، فالله شهيد على ما في قلب ابن آدم، وشهيد على عمله، والإنسان أيضاً شهيد على نفسه، لكن قد يقر بهذه الشهادة في الدنيا، وقد لا يقر بها فيشهد على نفسه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤][3].

وهذا القول له قيمته، فا الله شهيد على هذا الإنسان بما يضمره وما يظهره، وهو بأفعاله وأقواله وحاله المعلومة يشهد على نفسه بها.

والشهادة مستعارة لظهور آثار الكفران والعصيان بلسان حاله ولشهادة عقله ونور فطرته أنه لا يقوم بحقوق نعم الله، ويقصر في جنب

---

(١) البحر المحيط١٠/٥٢٦.

(٢) روح المعاني ١٥/٤٤٣.

(٣) تفسير القران الكريم ٢٩٧.

الله[1] (وعمل السوء مع العلم به غاية المذمة...)[2].

فهذا الإنسان يشهد على نفسه بما هو عليه من جحد للنعمة وكفر بها، وأحواله تدل على ذلك وإن لم يعبر عن ذلك بالمقال. ولسان الحال أفصح من لسان المقال.

وبعد أن بين سبحانه كنود الإنسان، وشهوده على نفسه، بيّن حبه للمال وحرصه على الحطام الفاني فقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ومعنى الخَيْرُ: ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلا، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضدّه: الشرّ وقوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: مالا. وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيرا، ومن مكان طيّب[3].

والمقصود من هذا أن الخير يطلق على المال الكثير. وقال بعض العلماء: إنما سمّي المال هاهنا خيرا تنبيها على معنى لطيف، وهو أنّ الذي يحسن الوصية به ما كان مجموعا من المال من وجه محمود، وعلى هذا قوله: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣][4].

والخير المقصود هنا هو المال، كما قال الله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ

---

(١) انظر محاسن التأويل١٧/٦٢٣٨.

(٢) روح المعاني١٥/٤٤٢.

(٣) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن١٨١.

(٤) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٨١.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. أي مالا – كما قاله ابن عباس (رضي الله عنهما) ومجاهد – وقيده بعضهم بكونه كثيرا إذ لا يقال في العرف للمال: خَيْراً إلا إذا كان كثيرا، كما لا يقال: فلان ذو مال، إلا إذا كان له مال كثير[١] والله أعلم.

واللام في (الخير) يمكن أن تكون للعهد أي الخير المعهود للإنسان وهو المال، ويمكن أن تكون للجنس أي جنس الخير فهو يبخل به، (الخير عام، كما في قوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ولكنه هنا خاص بالمال، فهو من العام الذي أريد به الخاص من قصر العام على بعض أفراده ؛ لأن المال فرد من أفراد الخير)[٢] ولذلك قال الثعالبي (ويحتمل أن يراد هنا الخير الدنيوي من مال، وصحة، وجاه عند الملوك، ونحوه؛ لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك، وأما الحب في خير الآخرة فممدوح؛ مرجو له الفوز)[٣].

واللام في ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ لام التعليل وقدم على متعلقة؛ للاهتمام بغرابة هذا المتعلق ولمراعاة الفاصلة [٤].

واختلف في معنى [لشديد] فقيل: إن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال. والمعنى الثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال...[٥]، فهو

---

(١) انظر روح المعاني ٤٤٩/١.

(٢) أضواء البيان٦٦/٩.

(٣) تفسير الثعالبي ٢٧٧/٤ وانظر المحرر الوجيز ٥٥/٧.

(٤) انظر التحرير والتنوير٥٠٥/٣٠.

(٥) انظر تفسير ابن كثير٤٦٥/٨.

بخيل بالمال ضابط له[١]، والواقع أن الثاني يتضمن الأول[٢]، ومعنى هذا أن كلا المعنيين صحيح.

والإنسان بسبب شغفه بالمال وتعلقه بجمعه وادخاره لبخيل شديد في بخله، حريص متناه في حرصه، ممسك مبالغ في إمساكه، متشدد فيه.

والإنسان حبه للمال أمر ظاهر ومشاهد ومعلوم، وهذا هو طبيعة الإنسان ولا يلام على ذلك؛ لأن تلك طبيعته التي فطره الله عليها ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ولا تكاد تجد أحداً يسلم من الحب الشديد للمال، والناس في هذا بين مقل ومكثر.

(أما الحب مطلق الحب فهذا ثابت لكل أحد، ما من إنسان إلا ويحب المال، لكن الشدة ليست لكل أحد، بعض الناس يحب المال الذي تقوم به الكفاية، ويستغني به عن الناس، وبعض الناس يريد أكثر، وبعض الناس يريد أوسع وأوسع فالمهم أن كل إنسان فإنه محب للخير أي للمال، لكن الشدة تختلف، ويختلف فيها الناس من شخص لآخر)[٣].

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، لها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون، وصدق الله العظيم: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. وحب الإنسان للمال بهذه الصورة يجعله غاية في ذاته.

---

(١) انظر تفسير الثعالبي ٢٧٦/٤.

(٢) انظر أضواء البيان ٦٧/٩.

(٣) تفسير القرآن الكريم ٢٩٨

(وحب المال يبعث على منع المعروف، وكان العرب يعيرون بالبخل وهم مع ذلك يبخلون في الجاهلية بمواساة الفقراء والضعفاء ويأكلون أموال اليتامى، ولكنهم يسرفون في الإنفاق في مظان السمعة، ومجالس الشرب، وفي الميسر، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ [الفجر: ١٨-٢٠])[١].

ولفظة (لشديد) بجرسها وإيحائها، ومخارج حروفها تنقل لنا صورة هذا البخيل الممسك الحريص المتناه في حرصه، المبالغ في إمساكه، فحرف الشين الذي يخرج من وسط اللسان مع ما فوقه من الحنك الأعلى، ومن صفاته الشدة، وحرف الدال الذي يخرج من طرف اللسان والثنايا السفلى، ومن صفاته الشدة، كل هذا يدل على أن هذه اللفظة بنطقها وبهذا الترتيب لحروفها، جاءت معبرة عن هذا الإنسان البخيل، الشديد الممسك.

وقد يسأل سائل لماذا سمي المال خيراً؟ والجواب والله أعلم.

أن التعبير عن المال بلفظ الخير (إشارة إلى أنه خير في ذاته، ولكنه قد يتحول في أيدي كثير من الناس إلى شر مستطير يحرق أهله)[٢].

و(لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً، كما أنه تعالى سمي ما ينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءاً، في قوله لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ)[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ٥٠٦/٣٠.

(٢) التفسير القرآني للقران ١٦٥٩/١٦.

(٣) التفسير الكبير ٥٦/٣٢.

ولذلك قال الطبري: (قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ قال: الخير: الدنيا؛ وقرأ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ قال: فقلت له: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: المال؟ قال: نعم، وأي شيء هو إلا المال؟ قال: وعسى أن يكون حراما، ولكن الناس يعدونه خيرا، فسماه الله خيرا، لأن الناس يسمونه خيرا في الدنيا، وعسى أن يكون خبيثا، وسمي القتال في سبيل الله سوءا، وقرأ قول الله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ قال: لم يمسسهم قتال؛ قال: وليس هو عند الله بسوء، ولكن يسمونه سوءا)[1].

وبين لفظتي [لشهيد] و[لشديد] جناس غير تام ونوعه الجناس اللاحق وهو الذي أبدل أحد ركنيه حرف واحد بغيره من غير مخرجه سواء كان الإبدال في الأول أو الوسط أو الآخر والآية التي نحن بصددها مثال الإبدال من الوسط[2].

والجناس له دلالته فاللفظة بجرسها لها وقعها الشديد، وبمعناها تحرك الوجدان وفيها تعريض بهذا الإنسان، فهو فيما يطلب منه نحو خالقه ومولاه الذي أمده بجميع النعم كنود وجاحد، وشاهد على نفسه بذلك، وهو مقصر وبخيل في طاعة مولاه؛ أما فيما يخصه وما يملكه فهو شديد البخل به، ضنين ممسك به.

وحبه الشديد للمال جعله هدفا في ذاته، وصار هو الغاية التي يطلبها،

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٥٧٠.

(٢) انظر إعراب القرآن وبيانه ١٠/٥٦٠.

ومن أجله يرضى، وله يغضب، ويعادي ويقصر في الحقوق، وحبه (هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة)[1]، والجمل السابقة جمل اسمية وهي تدل على الدوام والثبات وفيها جملة من المؤكدات حرف التوكيد (إن) (واللام المزحلقة) وهذا التوكيد يعامل المخاطب كأنه ينكر أنه كنود وجاحد، وشاهد على عمل السوء، ومحب للمال بخيل به، فتأتي التوكيدات لتؤكِّد له الحقيقة المرة التي لا يستطيع إنكارها لأن واقعه يشهد عليه بذلك.

وتنتهي الآيات بهذه الفاصلة التي تختلف عن الفاصلة السابقة، وتتناسب مع **الصورة** المعروضة [لكنود] [لشهيد] [لشديد]، فيها دعوة للتأمل، والغوص في أعماق النفس، وكشف أسرارها من جحود للخالق، وكفر بالنعم، والآيات بطولها تناسب المقام الجديد الذي يختلف عن المشهد السابق، الذي يتميز بالسرعة وقصر الفواصل، لكن الآيات هنا عندما لجأت إلى التعبير عن جحود الإنسان وحبه للمال، (فإن التعبير هدأ وطال؛ ليناسب المقام)[2].

وألفاظها تنفذ إلى الأعماق، وتكشف مسارب النفس ومنحنياتها و معارجها، ويمتاز المقطع هذا عن غيره بأنه (أطول نفساً، وأكثر مدوداً، وكأنه يشير بمدوده إلى التأمل الطويل، والهدوء النفسي، وتختلف كلمة الفاصلة في هذا القسم اختلافاً كبيراً في جرسها عن فاصلة القسم الأول،

---

(١) تفسير السعدي ٩٣٢/١.

(٢) الجدول في إعراب القرآن ٣٩١/٣٠.

كنود شهيد، شديد)[1].

وأيضا بين فاصلتي الآيتين السابعة والثامنة [شهيد، شديد]، توافق في الفواصل ويسمى السجع المرصع[2]، وهو من المحسنات البديعية. والترصيع معناه (إن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى، في الوزن والتقفية فهو الترصيع، كقول الحريري فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه)[3].

وحبه للمال لن ينفعه؛ لأن استمتاعه بهذا المال الذي جمعه وعدده وشح به وبخل سيكون استمتاعا لمدة معينة، وسوف يمضي، ولن يخلد لكي يستمتع به، بل سيذهب ويتركه لغيره.

(١) دراسة أدبية لنصوص القران الكريم محمد المبارك ١٥.

(٢) صفوة التفاسير ٣/٥١٥.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ١/٣٦٢.

ثالثا: النتيجة المترتبة على جحود الإنسان.

(صورة البعث والنشور)

في هذا المقطع تتصاعد المعاني لتبين المصير الذي سوف يؤول إليه هذا الإنسان الكنود الشحيح: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

وجاء التعبير بالاستفهام مهددا ومتوعدا ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ تهديدٌ ووعيد والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أيفعل ما يفعل من القبائح أو ألا يلاحظ فلا يعلم حاله، إذا بعث من في القبور من الموتى [1].

فأسلوب الاستفهام بتهديده ووعيده أسهم في تصعيد المعنى، والوصول إلى الغاية والقمة، وهناك في ذلك الموقف، وفي ذلك الوقت سيعلم إذا بعثر ما في القبور، وأخرج الموتى من قبورهم إلى المحشر، عند ذلك سيعلم ما سيؤول إليه أمره ومآله، وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفي.

وهنا سؤال لماذا قدمت همزة الاستفهام على فاء التعريف؟ والجواب لأن الاستفهام له صدر الكلام[2].

ومفعول [يعلم] محذوف وهو العامل في الظرف، أي أفلا يعلم مآله؟

---

(١) انظر أبي السعود ٤٨/٧.

(٢) أنظر التحرير والتنوير ٥٠٦/٣٠.

إِذا بُعْثِرَ [١]، و{إِذَا} ظرف يستدعي متعلقا، ولأنه أيضا شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعند ما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن[٢].

وانتصب {إذا} على الظرفية لمفعول {يَعْلَمُ} المحذوف اقتصارا، (ليذهب السامع في تقديره كل مذهب ممكن قصدا للتهويل)[٣].

ولا شك أن حذف مفعول الفعل «يعلم». فيه استدعاء للعقل أن يبحث عن هذا المفعول، وأن يستدلّ عليه، وفي هذا ما يدعوه إلى إعمال فكره، فيجد العبرة والعظة...، أي أفلا يعلم ما يكون في هذا اليوم؟ إنه لو علم لكان له مزدجر عن غيّه وضلاله[٤].

ومعنى [بُعْثِرَ] أي: أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها؛ قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع، جعل أسفله أعلاه. قال محمد بن كعب: ذلك حين يبعثون [٥]، ومعنى الْبَعْثَرَةُ: الِانْتِثَارُ، يقول صاحب أضواء البيان.

(ويرى الزمخشري: أن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين: البعث والنثر فالبعث: خروجهم أحياء، والنثر: الانتشار كنثر الحب، فهي تدل على بعثهم منتشرين[٦]، والمقصود بالبعثرة هنا إخراج الله للأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم)[٧].

---

(١) انظر البحر المحيط ١٠ /٥٢٨.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٤٠/٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ٥٠٦/٣٠.
(٤) انظر التفسير القرآني ١٦٥٩/١٦.
(٥) انظر اللباب ٤٦٧/٢٠.
(٦) أضواء البيان ٦٧/٩.
(٧) انظر تفسير السعدي٩٣٢/١.

ولما كان المخوف مطلقا، لم يحتج إلى تعيين الفاعل، (فبني للمفعول مهدداً مؤذناً بأنه شديد القدرة على إثارة الخفايا. معلقاً بما يقدره ما يؤول إليه أمره، من أن الله يحاسبه ويجازيه على أعماله، وأنه لا ينفعه مال ولا غيره، ولا ينجيه إلا ما كان من أعماله موافقاً لأمر ربه، مبنياً على أساس الإيمان، واقعاً بالإخلاص)[1].

وأيضا جاء الفعل مبنيا للمجهول [صرفا للذهن إلى الحدث نفسه، وتركيزا للانتباه فيه، وانتقالا سريعا من بعثرة ما في القبور إلى الحساب العسير][2].

وبمجرد إشارة من الرب سبحانه ودعوة منه تتبعثر هذه القبور الساكنة المستقرة قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، والبعثرة كما قلنا قبل قليل عملية تفريق وقلب للشيء، وجعل أسفله أعلاه، ولفظة «بعثر» **صورة** مرعبة فهي تصور الحالة الشديدة في ذلك اليوم وقد اختيرت هذه اللفظة التي تتميز بإيقاعها الخاص، وما فيها من حروف، فالباء تخرج من الشفتين مع إطباق بسيط، وتتميز بالجهر والشدة، والعين تأتي من وسط الحلق، والثاء تخرج من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا، والراء التي تخرج من طرف اللسان و يرتطم اللسان بالحنك الأعلى عند النطق بها، وقد ترجم تلك الحالة العنيفة بدقة هذه اللفظة بصيغتها، و جرسها الخاص، وإيحائها وشدة نطقها، فالقبور كانت مستقرة، ثم في لحظات يبعثر ما فيها ويفرق،

---

(١) نظم الدرر ٥١١/٨ بتصرف.

(٢) التفسير البياني للقرآن ١١٦.

ويحصل ما في تلك الصدور من خفايا، ظن صاحبها أنها ستبقى دون كشف وإظهار.

ولسائل يسأل لم عبر بـ(ما) دون(من) فقال سبحانه: [بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ] ولم يقل: بعثر من في القبور؟ وأجاب عن ذلك الرازي بقوله (هو أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب، أو يقال إنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء، بل بعد البعث يصيرون كذلك)[1]،

ويقول الشهاب (لأنهم في القبور أموات فألحقوا بالجمادات، وإن كان لهم حياة ما في وقت مّا لكنه الظاهر المتبادر)[2]،

وتزداد **الصورة** هولاً ورعباً فبعد بعثرة ما في القبور من الأموات، لا ينتهي الأمر عند هذا، بل يحصل ما في الصدور، ولذلك قال سبحانه ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ والتحصيل معناه: إخراج اللبّ من القشور، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبرّ من التّبن، والمعنى هنا أي: أظهر ما فيها وجمع، كإظهار اللبّ من القشر وجمعه، أو كإظهار الحاصل من الحساب[3].

أي: أظهر محصلا مجموعا. وقيل: ميز بين خيره وشره. ومنه قيل للمنخل: المحصل[4].

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/٦٥.

(٢) حاشية الشهاب ٨/٣٩١.

(٣) انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٤٠.

(٤) انظر الكشاف ٤/٧٨٩.

والمعنى في ذلك (أي تقصيه مما يستره والبحث عنه)[١].

قال أبو عبيدة: أي ميز ما في الصدور، وقال الليث: الحاصل من كل شيء ما بقي وثبت وذهب سواه، والتحصيل تمييز ما يحصل قال لبيد:

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه ** إذا حصلت عند الإله الحصائل[٢].

والتحصيل يستلزم الإظهار، والجمع والتمييز بين الأعمال خيرها وشرها، ودرجاتها وأنواعها، فكل شيء محصى في إمام مبين، والأعمال توزن بالقسط، فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل، فكل شيء محصل لك أو عليك.

وفي ذلك اليوم تظهر الخفايا وتتكشف الأستار فالإنسان في هذه الدنيا قد يكون باطنه بخلاف ظاهره (أما في يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتنتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] [٣].

ففي هذا اليوم يبرز ويظهر ما كان يسره الناس ويخفونه من أعمال ونوايا، وتحصيله لأجل: (تمييزه وكشفه؛ ليقع الجزاء عليه من إيمان وكفر ونية)[٤] أي من خير أو شر مما يظن مضمره أنه لا يعلم به أحد، حتى النيات محاسب عليها. (وهذا يدل على أن النيات يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها)[٥] والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥٥/٧.
(٢) انظر التفسير الكبير ٦٥/٣٢.
(٣) التفسير الكبير ٦٥/٣٢.
(٤) المحرر الوجيز ٥٥/٧.
(٥) نظم الدرر ٥١٢/٨.

وبين قرينتي الآيتين التاسعة والعاشرة [القبور ، والصدور] سجع مرصع. وسبق بيانه في الآيتين السابقتين.

والسر البلاغي الذي نلتمسه في هذين اللفظين وما يصورانه أن كل قبر سيخرج منه صاحبه ولن يبقى أحد في تلك القبور، كما أنه سيخرج كل ما استتر في تلك الصدور واضمر من أعمال ونوايا، ولن يبقى شيء في تلك الصدور مستورا، فكما أنه خرج كل من في القبور، فسيخرج كل ما في الصدور ولهذا قال الشيخ العثيمين أن التناسب بين الآيتين ظاهر(ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض، وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور، مما تكنه الصدور، فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر)[1].

و يبرز هنا سؤال لم خص أعمال القلوب بالذكر في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يذكر أعمال الجوارح؟ والجواب والله أعلم: (لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح، ولذلك إنه تعالى جعلها الأصل في الذم فقال: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصل في المدح، فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢])[2]. ويتساءل الرازي ويقول لم قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: وحصل ما في القلوب؟ ويجيب (لأن القلب مطية الروح، وهو بالطبع محب لمعرفة اللّه وخدمته، إنما المنازع في هذا الباب

(١) تفسير القرآن الكريم ٢٩٨-٢٩٩.
(٢) التفسير الكبير ٦٦/٣٢.

هو النفس، ومحلها ما يقرب من الصدر، ولذلك قال: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فجعل الصدر موضعا للإسلام)[١].

ونص على الصدور هنا، مع أن المراد القلوب؛ (لأنها هي مناط العمل، ومعقد النية. والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية)[٢].

فالله (ﷻ) يبين أن العمدة على ما في الصدور والقلوب، والناس في هذه الدنيا يعاملون بالظاهر، والله أعلم بالبواطن، لكن في ذلك اليوم تتكشف الأمور، فيصير السر علانية، والباطن ظاهرًا وسيكون الجزاء على ذلك؛ لأن الله خبير بالعباد.

ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ استئناف إخبار[٣]، فهذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن الإنكار[٤]، لأنّ الخبير العالم بما بطن ويلزمه العلم بغيره بالطريق الأولى[٥].

والخبرة الإحاطة بالشيء ظاهراً وباطناً، فهو محيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم ببواطن أمورهم، فكيف بظواهرها أقوالاً وأفعالاً، خفية كانت أو ظاهرة سراً كانت أو علانية، خيراً كانت أو شراً، ومن المعلوم أن فيها الظلم وغيره، ومنهم المحسن وغيره[٦].

---

(١) التفسير الكبير ٦٦/٣٢.
(٢) أضواء البيان ٦٨/٩.
(٣) انظر البحر المحيط ٥٣١/١٠.
(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٠٧/٣٠.
(٥) انظر حاشية الشهاب ٨/ ٣٩١.
(٦) انظر نظم الدرر ٥١٢/٨.

فهذه الجملة جاءت جوابا عن سؤال اقتضته الجملة السابقة، وهو إذا بعثر ما في القبور، وأخرج ما في الصدور، ماذا سيكون الحال؟ فجاء الجواب أن الله بالعباد يومئذ لخبير، والمقصود بذلك هو الحساب والجزاء في ذلك اليوم على الأعمال، والإتيان بالتوكيد بالآية الكريمة لإزالة الشك من القلوب الشاكة، وهذا الأسلوب يستخدم للمنكر كما بيناه سابقاً زيادة في التقرير والبيان.

وهذه الآية جاءت تعليلا (للجملة المحذوفة)[1]؛ الدالة على الحساب والجزاء ويمكن أن تقدر بنحو (حوسبوا) أو (جوزوا).

ولأجل علمه سبحانه بذلك غاية العلم [يحاسبهم؛ لئلا يقع ما ينافي الحكمة].[2]

وهذا يعني أن وراءهم الحساب المدقق، وتفيد هذه الجملة مفاد التذييل[3]، والضمير في (ربهم) و(بهم) يعود على الإنسان، لأنه يراد به الجنس[4].

وهنا سؤال: الضمير في قوله [إن ربهم] عائد إلى الإنسان وهو مفرد فكيف جمع فقيل (بهم)؟ والجواب والله أعلم (إن الإنسان هنا في معنى الجمع كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر: ٢] ثم قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [العصر: ٣] ولولا أنه للجمع وإلا لما صح

(١) نظم الدرر ٥١٢/٨.
(٢) نظم الدرر ٥١٢/٨.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٥٠٧/٣٠.
(٤) التسهيل لابن جزي ٢٦٤٠/١.

ذلك)[١].

ولذلك قال الشيخ ابن عثيمين (وجاء التعبير {بهم} ولم يقل (به) مع أن الإنسان مفرد، باعتبار المعنى، أي: أنه أعاد الضمير على الإنسان باعتبار المعنى، لأن معنى {إن الإنسان} أي: أن كل إنسان)[٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ أي المبعوثينَ كَنَّى عنْهُم بعدَ الإحياءِ الثاني بضميرِ العُقلاءِ بعدَ مَا عبرَ عنهُمْ قبلَ ذلكَ (بَما) بناءً على تفاوتِهم في الحالينِ[٣].

ولذلك قال الشهاب الخفاجي (لأنهم في القبور أموات فألحقوا بالجمادات، وإن كان لهم حياة ما في وقت مّا، لكنه الظاهر المتبادر، وأما في الحشر وبعد البعث فهم عقلاء محاسبون مسؤولون، فلذا عبر بضمير العقلاء عنهم بعد ذلك)[٤].

وهنا سؤال لماذا تم تقديم {بهم} على عامله وهو {لَخَبِيرٌ} والجواب والله أعلم (للاهتمام به ليعلموا أنهم المقصود بذلك)[٥].

وإذا كان الله خبيرا بهم في كل وقت ومطلعا على أعمال العباد الظاهرة والباطنة ومجازيهم عليها فلم خص بذلك اليوم؟ والجواب (لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه)[٦].

---

(١) التفسير الكبير ٦٦/٣٢.
(٢) تفسير القرآن الكريم ٢٩٩.
(٣) انظر تفسير أبي السعود ٤٩/٧.
(٤) حاشية الشهاب ٣٩١/٨.
(٥) التحرير والتنوير ٥٠٧/٣٠.
(٦) تفسير السعدي١/٩٣٣.

والقصد بالقيد وتقديم الظرف الإبلاغ في التعريف بأنه (ﷻ) محيط العلم بذلك كما إذا قيل لك: أتعرف فلاناً؟ فقلت: ولا أعرف إلا هو، فإن قصدك بذلك أن معرفتك به في غاية الإتقان، لا نفي معرفة غيره، وفيه إشعار بأن كل أحد يعرف غاية المعرفة في ذلك اليوم أنه (ﷻ) عالم بجميع أحواله [١].

وتقييده يومئذ؛ لأن علم الله بهم حاصل من وقت الحياة الدنيا، وأما الذي يحصل من علمه بهم يوم بعثرة القبور، فهو العلم الذي يترتب عليه الجزاء[٢].

و ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخبير، لأن خبير أخص من عليم، كما في قوله: قال نبأني العليم الخبير[٣].

وتقديم الظرف، (إما لمكان نظم السجع ورعاية الفواصل، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته، وهي إنما تكون يومئذ)[٤].

ومعنى (خبير) أي عالم، ويحتمل وجهين: أحدهما: لخبير بما في نفوسهم، الثاني: لخبير، بما تؤول إليه أمورهم[٥].

وهو تعالى خبير دائما لكن المعنى أنه مجاز لهم في ذلك اليوم[٦]

---

(١) انظر نظم الدرر ٨/ ٥١٢.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٧.
(٣) انظر محاسن التأويل ١٧/٦٢٣٨.
(٤) أضواء البيان ٩/٦٩.
(٥) انظر النكت والعيون ٦/٣٢٦.
(٦) انظر البحر المحيط ١٠/٥٣١.

وفي الآية [تضمين] فقد ضمن لفظ [خبير] معنى (المجازاة) أي يجازيهم على أعمالهم السيئة التي عملوها[١].

فهو عالمٌ بظواهر ما عملوا وبواطنه علما موجبا للجزاء متصلا به[٢]، والخبير: مكنى به عن المجازي بالعقاب والثواب[٣].

فهو سبحانه خبير بهم في كل وقت في ذلك اليوم، وقبل ذلك اليوم ولكنه في ذلك اليوم يظهر ما كان خفيا، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وخص علمه بهم في يوم القيامة قصدا للتهويل والتهديد.

وهكذا تنتهي الآيات بهذه الفاصلة بحرف الراء التي تختلف عن الفاصلة السابقة، [القبور الصدور، خبير]؛ لتناسب **الصورة** الجديدة التي تختلف عن الصورتين السابقتين، فالصورتان السابقتان في الحياة، وهنا نقلة أخرى من عالم مشهود إلى عالم مغيب لا نعرف عنه شيئا، وهذا المشهد الجديد ينتهي بصوت طويل، يتناسب مع موقف الفزع الأكبر في ذلك اليوم، فحروف المد و حرف الراء بجرسهما وإيحائهما ترسمان صورة هذا الإنسان الذي أصابته الدهشة الذي يجعله فاغرا فاه من هذا الأمر، الذي لم يكن مصدقا أنه سيحدث له، فهناك بعثرة للقبور، وتحصيل لما في الصدور من خفايا، عمل الإنسان المستحيل لإخفائها، لكنها في ذلك اليوم تكشف، فتطير القلوب خوفا وفزعا، حيث تهتك الحجب والأستار، وتظهر العيوب والأسرار، وتجزى كل نفس بما

---

(١) انظر صفوة التفاسير ٥١٦/٣.

(٢) انظر أبي السعود ٤٩/٧.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٠٧.

كسبت، فلا ظلم في ذلك اليوم؛ لأن الله خبير بالعباد.

وبالتأمل في مطلع السورة وخاتمتها نجد التناسب ظاهرا بين المطلع والختام، فمشهد بعثرة ما في القبور من الأموات الذين كانوا مستقرين في قبورهم، يتناسب مع مشهد إثارة الخيول للغبار المستقر، وهي متجهة للمعركة، وليس هذا فحسب، بل تصور الفرسان وقد توسطوا الأعداء، وأصابوهم بالهلع والخوف، وظهروا بعد أن كانوا مستترين، وما أحدثته هذه **الصورة** من بعثرة وحيرة وارتباك، ثم نتأمل **الصورة** الأخرى وهي حال الناس يوم القيامة وقد أصابهم الفزع، وبلغ منهم الخوف مبلغه، بعد أن كشف ما كان مستورا في الصدور، وحصل ما فيها وظهر، فإذا هم في حيرة وهلع وارتباك، ولذلك قال صاحب نظم الدرر مبينا المناسبة بين مطلع السورة وختامها. (وقد رجع آخرها إلى أولها، وتكفل مفصلها بشرح مجملها)[1] والله أعلم.

(١) نظم الدرر ٨/٥١٢.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة في سورة العاديات، أحمد الله على توفيقه وتيسيره، فقد عشت في رحاب هذه السورة، متأملا ما فيها من آيات بينات، غصت في بحر أعماقها، و تنقلت بين أرجائها. وآن البحث أن يصل إلى غايته ولا يعني هذا أنه تم استقصاء الأسرار البلاغية، والنكت البيانية في هذه السورة فهذا مالا سبيل إليه، ولكنها محاولة متواضعة؛ لتجلية تلك الأسرار التي تم الاهتداء إليها؛ وهو جهد المقل، وهذه بعض النتائج:

١. كشفت السورة عن الخصال التي تفضي بأصحابها إلى الخسران من حب للدنيا، ومنع للخير، وجحود للنعم، وإهمال للآخرة التي فيها الحساب العسير المدقق.
٢. سر القسم بالخيل- والله أعلم- بما تضمنه من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، لينوه بشأنها ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين ليعتنوا باقتنائها، والتدرب عليها، ولتكون جزءا من قوه الأمة؛ لتكون مستعدة لصد أي عدو، فالخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة.
٣. هناك علاقة وثيقة بين هذه السورة، وسورة الزلزلة، فلما ختمها ببيان الجزاء على الخير والشر، وبخ الله تعالى الإنسان على جحوده نعم ربه، وإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة، وترك استعداده للحساب، بفعل الخير والعمل الصالح، وترك الشر والعصيان.
٤. السورة تكونت من ثلاثة مقاطع، وكل مقطع يعرض جملة من المشاهد والصور ويمتاز كل مقطع باختيار الألفاظ والفاصلة التي تناسب طبيعة المشهد.

٥. السورة اختصت بمفردات خاصة لم ترد إلا في هذا الموضع كنود – العاديات.

٦. التنويع في الأسلوب بين الاسم والفعل، لتحقيق غرض بلاغي وفصل بين الأغراض، والتعبير بالاسم فيه الدلالة على الاستمرار، والتعبير بالفعل فيه الدلالة على التصوير، ولكل مجاله وموقعه في السورة.

٧. تبين من السورة أن التصوير قد يكون بالحقيقة، وقد يكون بالمجاز، وأسلوب الحقيقة له دوره في التعبير، كما أن أساليب المجاز كذلك، ولا يقال أن أحدهما أبلغ من الآخر، فالسياق يحدد ذلك.

٨. التقديم في بعض الآيات أضاف لها معانى جديدة؛ لإبراز ما يراد إقراره وتأكيده.

٩. استخدام الفعل المبني للمجهول في المشهد الأخير، يشير إلى التركيز إلى الحدث نفسه، وهذا أسلوب متبع في القرآن.

١٠. المحسنات البديعية في السورة جاءت لأغراض تخدم الموضوع الذي سيقت من أجله، ويتناسق مضمونها مع إيقاعها ولذلك حققت الغرض منها، ووقعت موقعها.

١١. السورة ختمت بمشهد البعث والنشور، وأنه سيبعثر من في القبور، ويكشف ما في الصدور؛ لأن الله عليم خبير وهو مشهد مهول مرعب.

١٢. كل صورة من مشاهد السورة له فاصلة تميزه من غيره ويلاحظ اتصالها الوثيق مع مضمون الآية، ولعل الاختلاف في الفاصلة بين المشاهد، تنبيه المتلقي إلى تغير المشهد مما يمهد له الدخول في الموضوع الجديد، وكل فاصلة يتناسب إيقاعها مع طبيعة المشهد **والصورة.**

١٣. بالتأمل في مطلع السورة وخاتمتها نجد التناسب ظاهرا بين المطلع والختام، فمشهد بعثرة ما في القبور من الأموات الذين كانوا مستقرين في قبورهم، يتناسب مع مشهد إثارة الخيول للغبار المستقر وما أحدثته الصورتان من حيرة وهلع وارتباك.

وأخيراً أحمد ربي على توفيقه، وتيسيره، فما سطرته نتاج عقول نثرت هذه الدرر في بطون التفاسير، أفدت منها، وبنيت عليها، وأستغفر ربي عما زل به الفهم أو تحميل الآيات مالا تحتمل والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم.**

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطاء، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، مطبعة السعادة.

٣. أساس البلاغة، تأليف الإمام الكبير جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة والنشر بيروت – لبنان.

٤. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

٥. أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه، د. سامي عطا حسن وصف، جامعة آل البيت – المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية.

٦. أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة ١٩٧٣م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م.

٧. إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق ط: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٨. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، لناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار

صادر، بيروت.
٩. البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١٠. بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية، دار ابن الجوزي، المحقق: يسري السيد - صالح الشامي، الناشر: دار ابن الجوزي - الرياض.
١١. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
١٢. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، تأليف عبد المتعال الصعيدي، الناشر: مكتبة الآداب - القاهرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٣. البلاغة مدخل لدراسة الصور البيانية، فرانسوا مورو، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير، إفريقيا الشرق- الدار البيضاء، ٢٠٠٣م.
١٤. التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق:محمد حامد الفقي دار المعرفة، بيروت، لبنان.
١٥. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية،: ١٤١٥ - ١٩٩٥.
١٦. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
١٧. التعبير الفني في القرآن الكريم، د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٩٩٤م.

١٨. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط: الثالثة، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.
١٩. التفسير البياني للقرآن الكريم، المؤلف: عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطيء، دار المعارف، الطبعة: السابعة.
٢٠. تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور.
٢١. تفسير الثعالبي المسمى (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، للإمام عبد الرحمن بنن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي، حقق أصوله: الشيخ علي محمد معرض وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م.
٢٢. التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٨٣ هـ.
٢٣. تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، ط: الثانية، ١٣٩٨ هـ – ١٩٨٧م.
٢٤. تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت – لبنان ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.
٢٥. التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
٢٦. التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
٢٧. تفسير المراغي، أحمد مصطفي المراغي، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

٢٨. التفسير المنير، الأستاذ الدكتور وهبه الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر – دمشق – سورية، ط: الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
٢٩. التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، دار الجيل، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ط: الرابعة ، ١٣٨٨ – ١٩٦٨م.
٣٠. تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، ط: السابعة: ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
٣١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
٣٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم محمد زهري النجار، جدة، دار المدني، ١٩٨٨م.
٣٣. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
٣٤. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٣٥. الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، تصنيف محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، مؤسسة الإيمان، بيروت – لبنان.
٣٦. حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي، للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، ضبطه الشيخ عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط: الأولى، ١٤١٧هـ

- ١٩٩٧م.
٣٧. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، لبنان/ بيروت.
٣٨. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، الإمام شهاب الدين أبي العباس بن يوسف المعروف بالسمكين الحلبي، تحقيق: علي محمد عوض وآخرين، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٣٩. الدر المنثور في التفسير بالماثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مركز هجر للبحوث، دار، هجر - مصر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٤٠. دراسة أدبية لنصوص من القران، محمد المبارك، دار الفكر المعاصر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣م.
٤١. دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.
٤٢. رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، طبعة مجمع اللغة العربية في دمشق.
٤٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
٤٤. زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، حققه محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله، خرج أحاديثه السعيد بن بسيوني زغلول،

بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٤٥. شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، حققه وضبطه وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ.
٤٦. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٧. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٤٨. الصورة في الشعر العربي، حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د.على البطل: دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، ط١٩٨٣-١م.
٤٩. الضوء المنير على التفسير، ابن القيم، تحقيق: علي الصالحي.
٥٠. الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي دار عمار، عمان – الأردن
٥١. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، حققه وخرج أحاديثه: د. عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ط: الثانية ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
٥٢. الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهمذاني، تحقيق: محمد نظام الدين فتيح دار الزمان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
٥٣. كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.

٥٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأليف، أبو القاسم دار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
٥٥. اللباب في علوم الكتاب، للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحلبي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٥٦. لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٥٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.
٥٨. مختار الصحاح، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقاهر الرازي، عني بترتيبه: محمود خاطر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
٥٩. معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتى، محمد على نجار، عبدالفتاح إسماعيل شلبى، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٦٠. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ــ أحمد الزيات ــ حامد عبد القادر ــ محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
٦١. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

٦٢. المفردات في غريب القرآن، لأبي حاتم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
٦٣. نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم عند سيد قطب، دار المنارة جدة، السعودية صلاح عبد الفتاح الخالدي.
٦٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الأندلس للنشر والتوزيع – جدة، ط: الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٦٥. النكت والعيون (تفسير الماوردي)، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.
٦٦. وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب الطبعة :الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٣٩٣
المقدمة	٣٩٤
التمهيد: حول السورة والصورة	٣٩٧
أولا: الحديث عن السورة:	٣٩٧
ثانيا: مفهوم الصورة في القديم والحديث	٤٠٠
أولا: القسم بالخيل ودلالته البلاغية (صورة الخيل)	٤١٢
ثانيا: المقسم عليه (صورة الإنسان)	٤٣٠
ثالثا: النتيجة المترتبة على جحود الإنسان. (صورة البعث والنشور)	٤٤٦
الخاتمة	٤٥٨
المصادر والمراجع	٤٦١
فهرس الموضوعات	٤٦٩